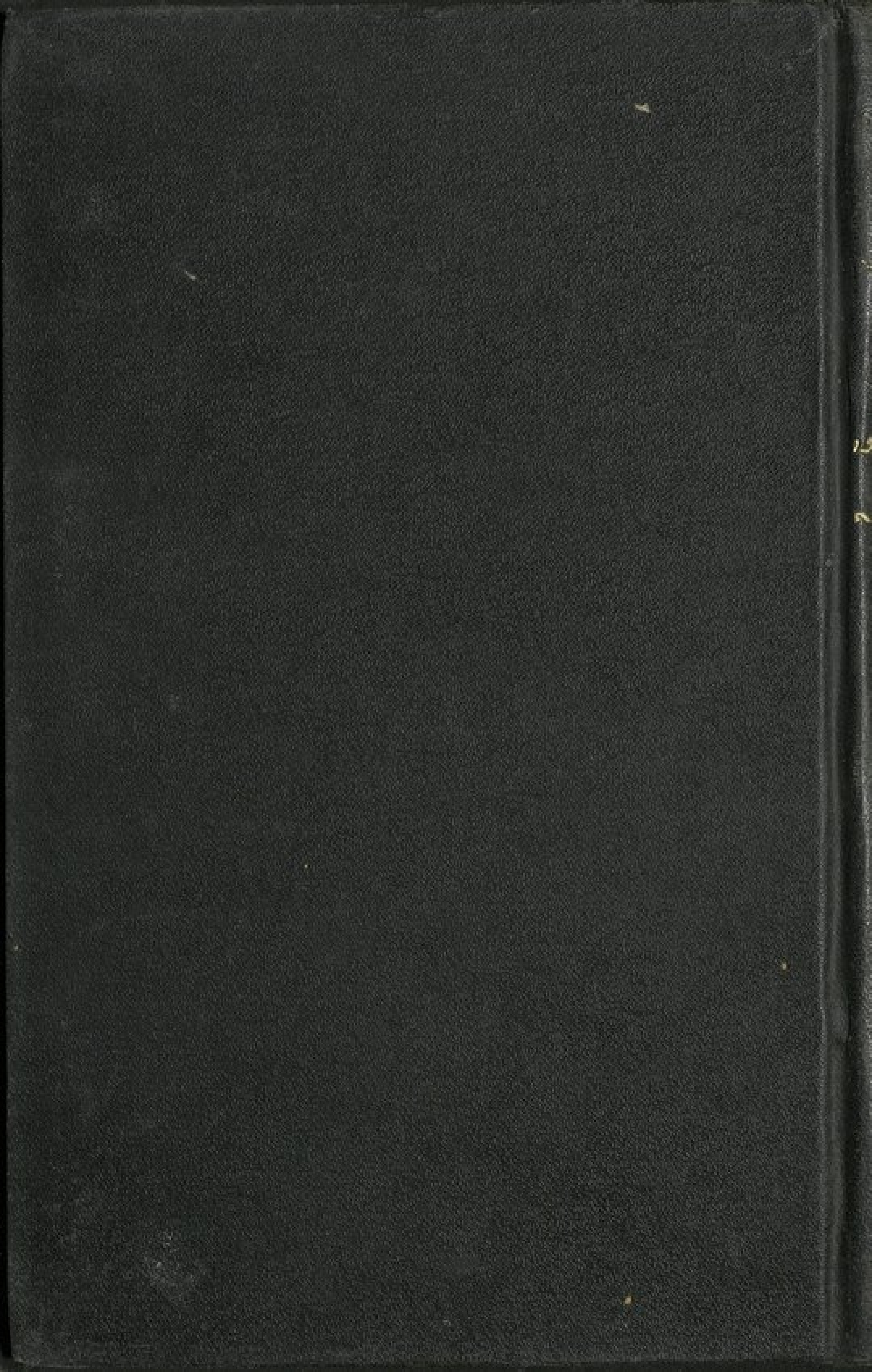


الرسول العربي

محمد بن عبد الله

والامبراطور (هرقل)

تأليف

عزت العطار

حفيد العلامة المرحوم الشيخ سليم العطار مفتى الديار الشامية



اهداء الكتاب

الى ابن عمي العزيز أمير الشباب وفخر الأدب

سليم العطار

بسم الله الرحمن الرحيم

وأنها لقصة تسفر عن شطر من التاريخ خطير . وتعرب عن ترجمة سفير جليل ، ونبي عظيم ، وتدلي اليك بكلمة الحق والصدق ودامغ البراهين ، على فخامة عظمة هذا السيد النبيل . وجلالة ذلكم الهمام الكريم .

وان في ذلك من وافر الثمرات ، وجم الفوائد العلمية والعملية مالا يخفي على ذي فطنة وبصير .

اعتمدت هذا العمل متوخيا أجل الخدمات للعالم الانساني . لاسيما ذوو المرؤة والانصاف .

والقصة تضم بين دفتيها مقدمة وتمهيداً ، ومقصداً .

أما المقدمة : فني القول عن وجه أهمية الموضوع ، وأساس خطره . ليتبين معشر القراء . انه بذاته ونفسه جدير بأن يحدو بي لتحرير هذه القصة البديعة ، ويدعوني بحق الى ذلكم الصنيع المجيد .

وأما التمهيد فني نموذج موجز من المهام ، وجلائل الأعمال العظام التي قام بها ذاك المصلح الشهير ، والمرشد الكبير .

وأما جوهر القصة : في السيرة المحمدية وما احتوت من همم علياء وشيم فخمة غراء ، ومناقب وحسنات . وأياد بيضاء فيتبين للناظرين أن الحقائق يسجلها التاريخ ويحفظها على الابد . وتنفع طلاب الدراية ، وتشاد الحقيقة أيما تقع . وأن العمل للصالح العام ابدي مخلد ، والاحسان الى الانسانية ذكره مؤبد

المقدمة

فى عصر الجاهلية المظلم ، والاسم يدل على المسمى كانت الامة العربية فى حالات الانحطاط المادى ، والعلمى ، والأخلاقى ، والادبى ، بحيث يعجز أبلغ الاقلام عن تصويرها ، والاتيان على وصفها .

كان العلم والادب مفقودين . اللهم الا فى ذاك النمط المعروف بالشعر الفطرى ، وكانت الشرائع مختلة عقيمة . والاخلاق معتلة سقيمة ، فكانت القوة الحاكم الوحيد ، القوة المتوحشة الطاغية .

فبينا كنت ترى اليوم فلانا أمير قومه وقبيلته، وفى عزة و رغد عيش بين أهله وقرابته ، واذ به فى صبيحة اليوم التالى تراه فى حالة الذل والهوان لدى أعدائه . مصفداً في السلاسل والاغلال . ملقى بين براثن سيطرتهم وسياطهم ، ومثله فى ذلك أبناؤه ، وأفراد عائلته من الرجال .

أما زوجاته وبناته ، والنسوة جميعهن ، فانهن يصبحن فى حالة تعسة كما تقتضيه تلك الوحشية الغاشمة . ترى القبيلة وقد شتت . والرجالات قتلت ، والنساء سبيت ، والخيام أحرقت ؛ والحطام نهبت والى منازل الغالب حملت .

كان فى ذلك الدور والكور يتسنى لكل عربى أن يتزوج بالعدد اللامعدود من النساء ، وكن لديه كالمتاع . له أن يهدى منهن لمن شاء متى شاء . وله أن يقتلهن انى شاء ؛ وله بيعهن والتصرف فيهن كيفما أحب وأراد، والأدهى من كل ذلك أن يصبحن بعد مماته ضمن الميراث . ينتقلن الى حوزة الوارث ، الى نحو ذلك وما شاكل ذلك مما يدلك على أن حالة المرأة

العربية فى تلك الاعصر والآونة حالة ذل وعبودية . بل حالة الدرجات الحيوانية . لا فرق فى ذلك بين أن تكون زوجة أو والدة ، أو جدة ، أو ابنة .

وبالجملة فان العدالة والشريعة كانتا عدماً محضاً . وأمراً صفراً ، فعملهم الوحيد ، كان الغزو ، والسطو ، والنهب، والسلب ، حاكمهم السيف، وقاضيهم السنان ، ومدنيتهم الدمار والبوار ، وعدلهم الفتك والسنار ، وديدينهم البغى والطغيان ، وشنشنتهم التفريق والاختصام، والعداء والعدوان . لاجامعة تجمعهم سوى جامعة القبيلة ولا وحدة تربطهم الا الوحدة العصبية

أوَ من ذلك يعلم لك مقدار ما كانوا عليه من الانحطاط العقلى والاخلاقى وحسبك دليلا على ذلك شاهد واحد هو ما كانوا عليه من وأد البنات تلك السجية التى تدل على منتهى الفظاعة والوحشيه .

اما الانحطاط المادى فان الصناعة ، والتجارة ، والزراعة ، كانت بائرة اللهم الا تجارة ضئيلة زهيدة .

فبينما العرب على هذه الحالة اذ قام النبى (محمد بن عبدالله) بينهم . وهو من بنى جلدتهم . بقوة الله وكلمته . فألف بين قلوبهم . وافرغهم فى خلقة جديدة ونشأة اخرى بديعة . وانشأ جامعة فتية ، ومدنية حديثة . وافكارا راقية صحيحة ، واخلاقا سنية جميلة ، وأسس الجامعة الاسلامية الفخيمة . ولم يكن من الزمن الا قليل غب ظهور شمسه . وبزوغ نجم دعوته ، حتى وصل العرب بفضل تعاليمه التى أتى بها . وقاموا على رفع رايتها ، متمسكين بحبلها المتين الى قلب (فرنسا) بعد الاستيلاء على (الأندلس) والى اسوار القسطنطنية »

وكذلك استولوا على بلاد (الفرس) و«القوقاز» حتى اواسط «روسيا» و بلغوا حدود (الهند) و (الصين) واستولوا على (مصر) وأواسط (افريقيا) واصلين الى جزؤ من حدودها الغربية . كل ذلك كان بفضل تعاليم ذلك النبى الأمى (محمد ابن عبد الله) تلك التعاليم التى هى أرقى تعاليم اجتماعية . و بأثر ديموقراطية الشريعة الاسلامية السنية .

ولقد نشر المسلمون فى جميع البلدان التى دخلوها مدنيتهم ، وعلومهم ، ودياناتهم فبينما كانت (اوربا) المختالة الآن بمدنيتها المادية . تتخبط فى ظلمات الجهل والانحطاط كان المسلمون على اسمى درجة من المدنية المادية . والروحية معاً . كانوا ينشئون الآثار العظيمة . والمزاول . والساعات . ويقتبسون دوائر نصف النهار من صحارى زنجار ، ويضعون أسس العلوم والفنون والصنائع النفيسة ، والمعارف والحكمة والفلسفة . وهذا نزر قليل من مآثر النبى (محمد) تلك المآثر التى هى معجزة ابدية وبرهان ساطع على صدق نبوته ورسالته التى لم ينثن عن التصديق بها أولوا البصائر والأبصار المستنيرة . كيف لا وأن النسبة بين الحالة العالمية قبل البعثة المحمدية . والنشأة التى جاءت بعدها ، هى كالنسبة بين الموت والحياة . والنسبة بين الظلمة والنور . وبين العدم والوجود . وذلك مصداق قول الله عز وجل فى كتابه المجيد مخاطباً نبيه الكريم (وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين)

حدابى هذا الحق الناصع الأبلج الى تحرير هذه القصة لخدمة الحقيقة والترنم بذكرى مناقب هذه النشأة البديعة . وهاتيكم الكينونة الرفيعة . والصدح بما لها من اياد بيضاء ، وفضائل غراء . على العالم الانسانى قضاء لبعض الحقوق والواجبات ورغبة فى افادة معشر القراء الكرام . وأولى النظر بانباء مجدها . وفضلها ومزاياها وآثار سنائها

هذا وقد اعتمدت فى مباحثى التاريخية على اسفار من اشتهر من المؤرخين العظام وهم «ابن خلدون» و «ابن هشام» و «السيرة الحلبية» و «ابن الاثير» و «الواقدى» وغيرهم فعسى ان ينزلها القراء منزلة القبول . على ما بكاتبها من تقصير عن الاجادة . وقصور عن البلوغ الى الغاية

وارجو القراء لى المعذرة فى وضع الامر الواقعى فى قالب روائى . فأن هذا الأسلوب البيانى من انجع الاساليب فى خدمة القارئين . وأفادة الناظرين فى جلاء الحق على منصة البيان والتبين .

المؤلف

عزت العطار

سكرتير لجنة الشبيبة السورية بالقاهرة

التمهيد

دعا الداعي الى الاسلام في جزيرة العرب. ولم يكن الا قليل حتى كثر من دانوا به . وانضووا تحت رايته . وكان (الشام) اول البلاد المجاورة (للحجاز) والتي فكر النبي العربي (محمد بن عبد الله) في فتحها لنشر كلمة التوحيد. ولقد لبثت تلك الديار تحت حكم الرومان سبعة قرون ، وملكها صاحب مملكة « بيزنطية » او مملكة الروم الشرقية ، ويعرف عند العرب باسم « هرقل ».

وكان سكان هاتيك الاقطار من سريان، و«عرب»، و« روم » و « فرس » اصحاب علاقات مع الحجاز بالتجارة ، كما كان اهل القطر ايضا . و من اهم ما كان يرجى تيسير الفتح أن قبائل عربية كثيرة كانت تنزل الشام بل تشارك دولة الرومان في الاحكام ، واشهرها قبيلتا « تنوخ » و « غسان »

وكانت هذه القبائل قد دانت بالنصرانية منذ ازمان . و نبذت عبادة الاصنام ، والأوثان . فقويت الرابطة بينها و بين البيزنطيين . وصاروا يبذلون لزعمائها الأموال ليقفوا في وجه البدو جنوبا حتى لا يهاجموا الشام ، وفي وجه الفرس حتى لا يهددوا آسيا الصغرى .

وكان الفرس قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين . قد فتحوا الشام و كسروا جيش الرومان سنة (٦١٤) م فدافع « هرقل » عنها سنة « ٦٢٦ » م وانتصر على « كسرى » ، ولكنه فقد « بانونيا و دالماسيا » من أجزاء مملكته ، وسقطتا في ايدي الخروانيين ، و الصربيين ، وخبا نجم المملكة وساء طالعها وتبدت عوارض الانحطاط في اعضائها . فارتأى « هرقل » ان يلقي بقياده الى البطريك « سرجيوس » القائل بطبيعة واحدة ، ومشيئة واحدة في المسيح .

وكانت النصرانية قد تشعبت الى مذاهب متباينة ، مختلفة . ونحل، واهواء، متضاربة غير مؤتلفة ، كنحلة النساطرة و بدعة اليعاقبة ، وما شاكل ذلك.

وجميع أرباب هذه المذاهب تكره حكومة الروم التي كانت تضطهدهم باسم المذهب الارثوذكسي . ولكن عقائدهم لم تكن لتزيدها الايام الا تأصلا ورسوخاً .

ولقد كانت « مصر » و « الشام » من جملة الأقطار التى أخذت تحاول الانفصال عن المملكة « البزنطية » وقد شغل الامبراطور وشعبه بالمسائل الدينية ، والخلافات المذهبية . فطفق ينظر الى غارات العرب نظر العاجز الضعيف . وزاده ضعفاً شيخوخته ، واستسلامه لرجال الدين مع أنه كان على ضعف ارادته شجاعاً باسلا ، وبطلا عاملا بعيد النظر ،

فانظر ما حال ملك ينخر بجسم ملكه سوس الفساد فى الداخل ، وهل لمن اعتل جسمه ، واختلت قواه أن يرسل بنظره الى الملمات القاصية فيتقيها وهو عن اتقاء مالديه من المنهكات أعجز ! ؟ .

فلا بدع أن أصبحت أحوال الشام من أشد ما يكون ملاءمة لفتوح العرب فى تلك الحقبة من الزمن ، سيما وأسباب الظفر موفورة لهم من كل وجه .

وكانت خزائن «هرقل» فارغة ، ومرتبات الامير الغسانى التى كانت الدولة تجريها عليه منقطعة ، والنفوس فى الشام مستاءة من المظالم والمغارم . قد سئمت الحروب والغارات . وهى عرضة لمطامع الفرس أو سوء ادارة الروم . والناس يتحدثون بقرب انفراج الازمة على أيدى الفاتحين من العرب . وكان يبلغهم من أنباء عدلهم ما تثلج به الصدور ، وتود لو ترى قبل ساعة طلعة الدولة الجديدة التى أتت من الأعمال ما استصعب على الدول الضخمة الأخرى أن يأتوا بمثله من باب العدل ، والرحمة ، والتسامح .

خوف هرقل على مُلكه

كان « هرقل » كثير الاضطراب والتفكير فيما يتصل به من اخبار جيوش « محمد » وغزواته لبلاده. وآخر ما اتصل به من نبأ تلك الغزوات صلح « دومة الجندل » وغزوة « ذات السلاسل » و غزوة مؤتة » وغزوة « تبوك » تلك الغزوات التى شغلت بال قيصر الروم مما اضطره الى ايجاد رابطة من الجيش بالبلقاء. ونظراً لما لهذه الغزوات من أهمية نريد أن نأتى على سردها فى ايجاز واختصار فنقول.

لما انتشر الاسلام فى جزيرة العرب أخذ الرسول العربى «محمد بن عبدالله» يغزو الروم فى الشام غزوات قليلة، ويرسل سرايا ضئيلة تختلف زيادة وقلة حسب الحاجة حتى يتعرف المسلمون طرق الشام وامصاره، ويسبروا غور الروم واستعدادهم، وكان فريق من العرب يرحلون الى الشام فى التجارة أوفى غيرها من الاغراض التى قد تنشأ عادة بين أهل كل قطرين متجاورين. حتى أن «محمدا» نفسه ذلك الرسول العربى كان ممن رحل الى الشام فى التجارة قبل النبوة، و بلغ حوران ثم عاد منها الى الحجاز. كما سيأتى شرحه فى حينه فعرف شيئا عن حالتها، ومالالروم من قوة. ولكن ذلك لم يثن من عزمه الشريف فى سبيل غرضه النبيل.

« غزوة دومة الجندل »

كان أول غزوات الرسول العربى للشام على رأس تسعة و أربعين شهرا من هجرته. و بيان ذلك فيما يلى.

بلغه أن بدومة الجندل جمعاً كثيفا يتعرضون لمن يمر بهم . من الذين يجلبون الميرة والطعام، وانهم يريدون أن يدنوا من المدينة. فندب الرسول الناس الى الخروج اليهم وملاقاتهم . وعندما اجتمعوا استخلف على المدينة

وخرج فى الف من المسلمين ، وكان يسرى الليل و يكمن بالنهار . ومعه دليل له من بنى عذره ، وما برح سائراً حتى لقيهم فى مقرهم فأخذ نعمهم وشاءهم و رجع لم يلق كيدا.

وندب الرسول « عبد الرحمن بن عوف » للسير إلى رؤساء دومة و شعبها ليدعوهم إلى الاسلام. فسار عبدالرحمن اليهم ودعاهم إلى الاسلام. فأسلم «الأصبع ابن عمرو الكلبي» وهو من رؤسهم وكان نصرانيا فاسلم لاسلامه ناس كثيرون من قومه واقام على اعطاء الجزية وتزوج عبد الرحمن ببنت الاصبع

وكان امير دومة «اكيدر بن عبد الملك» فى طاعة «هرقل» يعترض سفر المدينة فصالحه الرسول (محمد) على الجزية التى كان قدرها على كل بالغ فى أرضه (ديناراً) وكتب له ولأهل دومة كتاباً

وفى تلك الاثناء ارسل الرسول كتابا الى «هرقل» و «الحارث بن شمر» يدعوهما إلى الاسلام. وكان «فروة بن عمر الجذامى» عامل قيصر على عمان من ارض البلقاء قد اسلم. وارسل الى رسول الله رسولا يدعى «مسعود بن سعد» من قومه بكتاب وهدية ، فقبل الرسول هديته. وكتب اليه رد كتابه. فلما بلغ ذلك قيصر وعلم باسلام «فروة بن عمر» قاده الى السجن. فلم يزل به الى ان مات. فلما مات صلبوه

(غزوة ذات السلاسل)

بعث «محمد بن عبد الله الرسول العربى» سرية « كعب بن عمر القفارى » الى ذات اطلاع من ناحية الشام وهى « ماوراء وادى القرى بين تبوك واذراعات » وكان ينزلها قوم من قضاعة ورأسهم رجل يقال له « سدوس » فخرج « كعب » هذا فى خمسة عشر رجلا فلقي جمعاً كثيرا فدعاهم الى الاسلام فابوا أن يجيبوا ، وقتلوا أصحاب كعب جميعا ، وتحامل رجل منهم حتى بلغ

المدينة . وفى هذه السنة استنفر الرسول الناس الى الشام . فكانت غزوة ذات السلاسل . والسلاسل ماء بارض جذام .

وذلك أن الرسول وجه « عمرو بن العاص » فى ثلثماية مقاتل . ثم استمده عمرو » فأمده « بأبى عبيدة الجراح » على مائتين من المهاجرين والانصار فيهم «ابو بكر» و «عمر» فكان الجميع خمسمائة ولكنهم على مارواه المؤرخون رجعوا من هذه الغزوة على غير جدوى .

« السرية الى جذام وغزوة « مؤتة »

ومن السرايا التى ارسلت الى الشام سرية « زيد بن جارثه » الى جذام بحسمى وراء وادى القرى مما يلى بلاد فلسطين من ارض الشام . وسببها أن (دحية بن خليفة الكلبى» كان قد اقبل من عند قيصر . وقد اجاره وكساه . فسلبه اهل حسمى . فغزاهم «زيد بن حارثه» واستولى على غنائم منهم . بيد أن الرسول رد اسلابهم اليهم .

وفى تلك السنة بعث الرسول جيشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل بلغوا البلقاء فلقيهم جموع «هرقل» ملك الروم و معهم العرب النصارى بقرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف» فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها «مؤتة» والتقى الناس عندها . ولقيهم الروم فى جمع عظيم .فقتل من الامراء (زيد بن حارثه » ثم (جعفر بن ابى طالب» ثم «عبدالله بن رواحه» فلما فجع المسلمون فى ثلاثة قواد عظام . وكان « خالد بن الوليد » بين القواد فى ذلك الجيش رأى من المصلحة أن يعود بمن معه الى المدينة

وكان السبب فى هذه الغزوة أن النبى بعث (الحارث بن عمر» رسولا الى ملك «بصرى» عاصمة حوران بكتاب كما بعث الى سائر الملوك فلما نزل بمؤتة عرض له (عمرو بن شرحبيل الغسانى) فقتله . ولم يقتل لرسول الله رسول غيره

وربما كان من اسباب رجوع «خالد» انه رأى جيش الخصم قدر جيشه اضعافا مضاعفة . فقد كانت الروم فى يوم (مؤتة) نحو مائة ألف مقاتل . على ماقاله فريق من الرواة . وقيل أن (هرقل) نزل (مآب) من ارض البلقاء فى مائة الف من الروم وانضمت اليه المستعربة من «لخم» و «جذام» و «بلقين» و «بهراء» وغيرهم فى مائة الف .

« غزوة تبوك »

كانت انباء الشام تتصل بأسماع اهل المدينة كل يوم لكثرة من كان يرد عليهم من الذين يتجرون بالزيت والدرمده « اى دقيق الحوارى » وذات يوم قدمت عليهم قادمة . وذكروا أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن « هرقل » صاحب الروم قد رزق اصحابه لسنة واستنفر العرب النصارى . فاجاب نداءه قبائل « لخم » و « جذام » و « غسان » و « عاملة » و « بهراء » و « سليح » و « تنوخ » وغيرهم من عرب الشام . وزحفوا وقد قدموا مقدماتهم الى البلقاء وعسكروا بها . وتخلف « هرقل » بحمص وحزب الروم البعوث على العرب فى الضاحية .

فرأى الرسول « محمد » أن يبدأ الروم بالقتال قبل أن يبدؤا به . فاشار بالتجهيز لغزو الروم والمطالبة بدم « جعفر بن ابى طالب » الذى استشهد فى مؤتة . وكان الرسول اذا اراد غزوة ورى بغيرها الا فى هذه . وذلك لقوة العدو وبعد الطريق ، والجدب ، والحر ، والناس فى عسرة ، وكان معه ثلاثون الفاً ، والخيل عشرة آلاف ، والجمال اثنى عشر الفا ولقى الجيش حراً وعطشاً . وانفق ابو بكر الصديق فى تجهيز هذا الجيش جميع ماله . وانفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة وكان من اغنيائهم .

قال الرواة : خرج المسلمون فى غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير وخرجوا فى حر شديد ، وكان معهم من الماء قليل . فاصابهم يوما عطش شديد

حتى جعلوا ينحرون ابلهم فيعصرون اكراشها ، ويشربون ماءها . فكان ذلك عسرة من الماء ، وعسرة من الظهير ، وعسرة من النفقة ، ولذلك سمى جيش العسرة .

وبلغ الجيش الحجر وهو ارض ثمود فنهاهم الرسول عن مائه . ووصل تبوك فاقام بها عشرين ليلة .وسميت هذه الغزوة غزوة تبوك ولم يلق المسلمون فى هذه المعركة كيداً .

واتى (يحنة بن رؤية » اسقف « إيلة » على البحر الاحمر فصالحه الرسول على الجزية . وكتب « ليحنة » هذا عهدا هاك نصه

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا امان من الله ومحمد النبى « ليحنة بن رؤية » واهل « إيلة » اساقفهم وسائرهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبى ومن كان معهم من اهل الشام . واهل اليمن .واهل البحر . فمن احدث منهم حدثا فأنه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس . وانه لا يحل ان يمنعوا مايريدونه . ولا طريقاً يريدونه من بر او بحر .

هذا ما كتبه جهيم بن الصلف . وشرحبيل بن حسنة . بأذن من رسول الله .

وصالح الرسول اهل . جرباء . و اذرح من بلاد الشراة . وصالح اذرح على مائة دينار وصالح اهل (مقنة) على مقربة من إيلة على ثلاثمائة دينار . انتهى

(خوف عاهل الروم واضطرابه)

هذا ولشد ما كان وقع هذه الحادثة على عاهل الروم عظيمة : فأنها كادت تذهب بعقله . وتعيد الى ذاكرته جميع انتصارات جيوش « محمد » فكان يحرق الأرم غيظا . وطفق يأخذ الغضب منه كل مأخذ بحيث انه لم يتمالك حينما وصلته اخبارها وكان فى ديوانه الا أن ينفرد بغرفته . ويأخذ فى التجوال ذهابا وايابا مخاطبا . نفسه بقوله .

كيف يغزو محمد بلادى . ام كيف يعقد الصلح مع عمالى . بل كيف يؤدون له الجزية . وهم تحت امرتى وحمايتى . وانا . هرقل . امبراطور الروم ، وملك بيزنطية ؟ .

انى حاربت الفرس . وكسرت جيوشهم فى غير مرة حتى طارصيتى فى الخافقين اوَ بعد ذلك كله يغز و «محمد» بلادى بشرذمة قليلة من العرب لامال لهم ولاسلاح عندهم . حفاة عراة . لا يملكون شروى نقير . فما هو السبب فى توفقهم . وما هو السر فى ذلك ياترى ؟

وإلا كيف يتوفقون وينتصرون على عمالى فى كل حروبهم مع قلة عَددهم وعُددهم . لا بد ان يكون هنا لك سر غمضت على رموزه . والتبست على طلاسمه . واستصعب على حله .

ليت شعرى ألديهم سحر يستخدمونه ام ماذ ؟ (لا بد من وجود سر يجب على ان اكتشفه مهما كلفنى اكتشافه . بل يجب على ان اعرف حقيقة «محمد» ودعواه ولو حالت دون ذلك المصاعب .

هرقل والخطاب

وفى ذات يوم بينما الامبراطور «هرقل» جالس يفكر فى مصير ملكه اذ اخذته الرعشة بغتة واضحى فى حالة انفعال شديد جعلته يقوم من الغرفة التى كان جالسا بها الى مكتبه الخاص واخرج من جيبه مفتاحا فتح به صندوقا خاصا له . وابرز منه خطابا كان قد تسلمه حينما كان بالقدس الشريف .

وما كاد يلقى بنظره عليه حتى اصفر وجهه . وامتقع لونه . واصطكت ركبتاه . وتلعثم لسانه . واخذ العرق يتصبب من جبينه . لأن الخطاب كان خطاب (محمد) الى الامبراطور «هرقل» الذى يطالبه فيه بالدخول فى حظيرة الأسلام

ففى هذه اللحظة خطر للأمبراطور ان يعيد تلاوة الخطاب فامر احد الحجاب باحضار الترجمان . فما اسرع ان اتى به ودخل على مولاه عاهل الروم

فلما وقع نظر القيصر عليه قام واقفا على قدميه والغضب آخذ منه كل ماخذ . وناوله الخطاب آمرا له بترجمته . فتناول الترجمان الخطاب من يد مولاه . وبعد فحصه ومعرفة ما احتواه . اخذ ينظر تارة الى الخطاب واخرى الى وجه مولاه المكفهر . وخشى الترجمان عاقبة تلاوته وتخوف من غضب مولاه . فاطرق مليا وتظاهر بامعان النظر فيه والتأمل فيما يحويه . الى ان نفذ صبر القيصر فصاح به . اسرع واتل الخطاب فانى لا اريد الانتظار . فامتثل الترجمان لامر سيده . فاخذ يتلو على مولاه الامبراطور الخطاب ويترجمه له وهاك نصه .

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين . وان توليت فأن اثم الاكابر عليك . ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة : الخ .

محمد رسول الله

فلم يكد الترجمان ينتهى من تلاوة الخطاب وترجمته حتى تحقق ما كان يتوقعه فانه نظر الى وجه الامبراطور فرآه مكفهرا . وقد اخذ الغضب منه مأخذه وصار يهدد السماء بقبضة يده ويصيح بصوت جهورى قائلا (المثلى يرسل «محمد» هذا الخطاب . او من امبراطور الروم وملك بيزنطية يطلب الايمان والاذعان لدعوته ؟ . وهو رجل مجهول لم يعرف اسمه بين قبائل العرب . ولا بين الناس الا فى هذه البرهة الاخيرة . فضلا عن كونه ليس من الأمراء المعروفين .

يا الهى : من هذا . ومن عساه يكون . وما هى نفسيته ؟ ولكن من يدري لعله رجل عظيم . وربما كان صادقا فى دعواه انه رسول من قبل الله كما يقول . ولكن . لا لا هذا غير ممكن لان السيد المسيح لم ينبئنا فى الكتاب المقدس بأنه يأتى من بعده نبى يسمى «محمدا» ويولد بالحجاز .

اذاً . ارى من الواجب على ان ابحث عن اصله . وحسبه . ونسبه . وعن

دعوته وسببها . ولماذا ينشرها ؟ فان كان يطلب مالاً اعطيناه اياه . وان كان يبتغي جاها او ملكا اوليته على عموم القبائل العربية النصرانية ، وادخلته فى طاعتى ، وشملته برعايتى ، وتركت تحت امرته جيشا افتتح به بلاد كسرى .

أجل يجب عليّ ان اعرف بالتحقيق ما غايته من ادعاء النبوة . وكيف ترك عبادة الأوثان التى كان عليها قومه . فلأرسلن الرسل لاستقصاء انبائه الحقيقية مهما كلفنى ذلك ، ولأعتمدن على صدق من انتخبه ليتولى هذه المهمة حتى لا تخفى عليّ من الحقيقة خافية وان تكن مرة مؤلمة

وعندما وصل الى هذه الفكرة اخذ الغضب يتسرى عنه رويدا ، رويدا . وتذكر ان الترجمان لم يزل واقفا . وقد طال به الوقوف ، فالتفت اليه آمرا له بترك الخطاب والانصراف .

وبعد خروجه اعاد الخطاب الى موضعه وتناول منديله وجعل يمسح به عرقه ولشدة ما أصابه من التعب دخل غرفة نومه فنام نوماً غير هادىء .

فى صبيحة اليوم التالى أعد ديوان القيصر للانعقاد فحضر جميع الوزراء والقواد . ورؤساء الأديان . وبعد أن اكتمل عقد الاجتماع نادى الحجاب بقدوم القيصر فقام الكل اجلالا وتعظيما لصاحب التاج والصولجان ودخل يميس فى أبهة الملك حتى وصل الى العرش الذى أعد لجلوسه . فجلس وجلس بعده سائر من فى الديوان ، وبعد أن استقر بالملك المقام بدأت تعرض عليه الاخبار . فكان ينظر اليها باختصار لاشتغال باله بما اهمه وكان فى اثناء جلوسه يلتفت تارة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال . كمن يبحث عن امر ضله فلا يجده .

وفيما هو على هذا الحال اعلن الحجاب حضور القائد «أرمانيوس» فوقف الكل تعظيما له ماعدا القيصر . ورفعت الستائر فدخل القاعة شاب لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر . طويل القامة عريض المنكبين . مرسلا شعره الذهبي على كتفيه مما زاده مهابة وجلالا . وكان فى ذلك اليوم مكتسيا حلة من الحرير

الاحمر المزركشة بالذهب الخالص ، وعلى رأسه خوذة من الذهب الصافي الوهاج متمنطقا بحسام منقوش ، ومرصع بالاحجار الكريمة . تسطع منها انوار تدهش الأبصار ، وتأخذ بالعقول والانظار . ولما توسط القاعة أحنى رأسه ومشى فى خشوع حتى وصل سلم العرش الذى استوى عليه الامبراطور فركع على احدى ركبتيه ، ولثم أذيال مولاه ، ورجع الى الوراء حتى انتهى الى آخر القاعة ؛ ثم تقدم الى من بها مصافحاً الى أن صار فى مركزه الرسمى وهو الموضع الثالث على يمين الأمبراطور

وقد لبث الديوان منعقدا ما يناهز اربع ساعات من الزمان خصت منها ساعة للنظر فى المصالح العامة ؛ والباقى للتحدث والمداولة فى اعمال (محمد بن عبد الله) وغزوات جيوشه . وخاضوا ايضا فى امر الكتب التى ارسلها الى الملوك والحكام فى دعواه النبوة . وطال بالحاضرين الجدل والبحث وكل يبدى رأيا غير رأى الآخر . والبعض كان يتكهن بمصير محمد وجيوشه حتى دب الملل فى جنان الامبراطور ، فأمر بفض الدايون ، وهب قائماً ، لمغادرة القاعة وعند قيامه نظر الى القائد ارمانيوس نظرة خاصة فهم القائد منها ان مولاه يريده بعزلة . واخيرا شيع الجميع الامبراطور الى الباب ، وانصرفوا الى مقارهم الا القائد ارمانيوس فانه سار الى لقاء مولاه .

القائد ارمانيوس والقيصر

دخل القائد ارمانيوس على القيصر بغرفته الخاصة فوجده جالساً وراء مكتبه وقد اطرق مفكرا ومن غرقه فى لجة التفكير لم يشعر بدخول القائد . ولبث ارمانيوس واقفا بين يدى القيصر ماينيف عن نصف ساعة ، والقيصر فى بلبال ، وانشغال بال الى أن رفع رأسه وحانت منه التفاتة الى ارمانيوس فتظاهر بالابتسام ، وقال بصوت يتخلله شىء من الارتجاف

اوصد الباب يا ارمنيوس وادن منى فانى اشعر بان ملكى قد اقترب من الزوال واصبح سلطانى من الانقراض على قاب قوسين او أدنى . اذ لو لبث (محمد) يغزو بلادى ، و ينتصر على ما تحت امرتى من القبائل بالمنوال الذى يتصل بنا نبؤاه يوما فيوما ، وأنا غب آن ، و يعقد الصلح مع عمالى دون أن يلقى مقاومة فعالة . فلا شك أن سلطانى على القبائل العربية المتنصرة ينتهى الى الاضمحلال و يتقلص ظله بمر الايام والليالى . بل يسرى ذلك الى المدائن التى تحت حمايتنا . وانت تعلم مثلى أن فى البلاد تذمرا من عمالنا . وانى لأخشى اعظم من ذلك . وهو أن يتوفق (محمد) لفتح الشام . فيغزو القدس ، وما جاوره من البلدان . وفى اعقاب ذلك يطمح الى الاستيلاء على الفرس واتخوف أن يدين الفرس بدينه فتصبح مملكة الروم هدفا لجيوشه وغارات اصحابه ، ومن يدرى ؟ فلربما امتد به الطموح اذا وفق فى أعماله الى الاستيلاء على القسطنطينية . فتتحقق غاياته . وتتم امنياته وانت تعلم الآن مقدار الخلاف المستحكم الحلقات بين رجال الدين . ذلك الخلاف الذى ادى الى انحطاط مملكتنا ماديا . وادبيا . وأودى بقوتنا وشوكتنا . لذلك ولما آنسه فيك من الشجاعة وصدق العزيمة . اعتزمت أن اعهد اليك بمهمة ، وان كانت غاية فى الخطورة ، ولكن ثقتى بك وعلمى بمقدرتك واخلاصك لعرشى ، ومحبتك لبلادك ، ونادر ذكائك ، كل ذلك جعلنى أن ارجح نجاحك فى هذه المهمة .

وذلك ان تتجهز للسفر الى الحجاز فى تخفٍّ واستتار بحيث لا يشعر بك أحد ، وتسير الى مكة وتخالط القوم وتعاشرهم ، وهذا يتسنى بما لك من معرفة والمام باللغة العربية . ثم تبحث البحث الدقيق عن حقيقة (محمد) وسيرته بما فيها من حسب ، ونسب ، ومولد ، وكيف بدأ دعوته تبحث ذلك بحثا تفصيليا ثم توافينى به وبما تصل اليه من النتائج . وعليك

ان تستصحب معك لفيفامن الخدم المخلصين ، حتى اذا وجدت نفسك فى حاجة الى اطالة الاقامة سيرت احدهم الىّ مصحوبا بالانباء والاخبار . ومتى تسنى لك ان تعلم غاية الرجل وما يشرئب اليه من دعواه اسعفنى بالأعلام عن ذلك ، واننى من الساعة واضع تحت تصرفك مايلزم من المال .

فعجل ياارمانيوس بالسفر واعمل لراحتي ، ولانقاذ بلادك مما احدق بها من الخطر ، واكتم امر سفرك ، واياك والتوانى واستعد لكل الطوارىء . هذه اوامرى اليك مشفوعة بالنصائح . فاذهب الآن ودبر شئونك وسافر على عجل ، واننى لآمل ان اعلم بالحقيقة فى اسرع ميقات .

فانحنى القائد ارمانيوس ولثم رداء القيصر اشارة الى القبول ، والخضوع لأوامر مولاه . وخرج من لدن عاهل الروم فرحا مسرورا لتلك السياحة التى طالما تاقت نفسه اليها ، فجاءها الامر عفواً صفوا بلا عناء ولا تكبد مشقة .

وكان ارمانيوس بطبيعته يميل الى العزلة والخلوة فى البرارى والقفار ، والتخلص من تقاليد البلاد ، والعناء من معاشرة الكبراء والامراء .

واى معيشة ألذ من ان يمتع المرء نظره بجمال الطبيعة الساحر الفتان ، وان يكون حرا طليقا فى ارض الله الواسعة ، وعلى الاخص هبوطه ببلاد غير بلاده ، ومعاشرته لقوم لايزالون على الفطرة ، لا يعرفون من الكلفة شيئا وسياحته فى بلادعربية محضة ، تلك البلادالتى كثيرا مااشتاق الروم الى رؤيتها ، ومخالطة سكانها والنظر الى حالتهم وما طبعوا عليه من تلكم الشجاعة التى طبق صيتها الخافقين ، خرج ارمانيوس منشرحاً مسرورا بأوامر مولاه وانتدابه لهذه المهمة ، وكان ميالا الى اكتشاف حقيقة (محمدبن عبدالله) وسر عمله ومجهوده .

فسارا توآ إلى منزله وأخذ يدبر شئونه استعدادا للسياحة ، ثم رسم خط السير لهذه المهمة الملقاة على عاتقه. أما عاهل الروم فانه شعر بارتياح عظيم لتكليف ارمانيوس بهذه المسألة الخطيرة.

لذلك انفرج عنه بعض مابه من هم وأخذ يرصد رجوع القائد ارمانيوس اليه أو وصول رسله المزودة بالتفصيلات الصحيحة عن نبأ (محمد بن عبدالله)

القائد أرمانيوس وسفره الى الحجاز

القائد أرمانيوس كما قلنا فتى فى الخامسة والثلاثين من العمر ، طويل القوام عريض المنكبين ، أبيض اللون مشربا بحمرة ، أزرق العينين ؛ ذهبي الشعر زاده بهاء وجمالا استرسال شعره الذهبي فوق كتفيه.

ولد فى القسطنطينية من أبوين كريمين ينتسبان الى أشرف العائلات العريقة فى المجد. وكان أبوه من كبار رجال البلاط الذين يشار اليهم بالبنان ، ووالدته سيدة من النساء الفريدات خلقاً وخُلقاً ، ذوات النفوس العالية ؛ والهمم الشماء ورث ابنها عنها هذه الأخلاق السامية الكريمة ، كما ورث عن ابيه صفات الشجاعة ، وقوة العزيمة ، والصبر واحتمال المكاره فى خدمة وطنه ومليكه.

فكان خير خلف لخير سلف ، وكان يد الامبراطور اليمنى ودرعه الواقية الأمينة فى جميع وقائعه ومشاهده ، حتى ذاع صيته وشاع فى جميع أنحاء المملكة واحبه الشعب والجند حباً كان يقرب من العبادة ، وأصبح القائد الوحيد الذي يعتمد عليه الامبراطور (هرقل) فى المهمات ، ويأتمنه على أسراره ويعهد اليه فى حل ماهمه ، ويشغل باله. من أمور السياسة المعضلات وكبرياتها المشكلات.

ومما زاد « أرمانيوس » عظمة وسموا انه كان قد خالط العرب من غساسنه

وغيرهم وعرف عن عاداتهم وأخلاقهم قدرا غير قليل ، وتعلم لغتهم حتى أصبح يتكلم بها وكأنه العربي الصميم . لا يفرق بينه و بينهم سوى لكنة خفيفة في لسانه . بله بياضه المشرق ، وشعره الذهبي .

وكان فى فطرته الميل الشديد للذهاب الى الحجاز ، و يود لو تمكنه الظروف والاسباب من التجول فى تلك البيادى والوديان ، مع ميل جسيم لمخالطة عشائره .

لذلك جاءت المهمة التى القاها الامپراطور على عاتقه طبق رغبته ، وما كان يصبو اليه بفطرته . فلم يكد يسمع من الامبراطور تكليفه اياه بالمضى الى أرض الحجاز حتى كاد لبه يطير فرحاً ، وخرج من وقته وساعته يهيء نفسه للسفر والترحال . وانتخب اثنين من جنوده البواسل لمرافقته فى هذه الرحلة و بدل ثيابه وثيابهم ، فلبس أرمانيوس حلة فاخرة من الخز والديباج والحرير ، وشخص للسفر متجها ناحية (القدس) ممنيا نفسه بلقاء شيخ قبيلة من قبائل العرب يتردد على القدس كثيرا يدعى (قيس بن عمرو) كان تعرف به وصار صديقه .

وصل القدس ونزل مع خدمه وعونه فى أحد الفنادق الشهيرة ، وانزلوا به متاعهم وقضى عشرة أيام فى الراحة من عناء السفر ، ومشقة الطريق ، باحثا فى خلالها عن صديقه (قيس) .

وقد بذل الجهد فى البحث فلم يدع فندقا من الفنادق التى ينزل بها العرب الاوذهب اليه سائلا مستفهما عن صديقه فلم يعثرله على أثر ، وما أتيح له لقاؤه .

أرمانيوس وقيس ،

وذات يوم بينما هو يتجول فى شوارع المدينة ، وعلائم اليأس بادية على محياه ، والقنوط آخذ منه كل مأخذ ، بما اعوزته الحيل فى العثور على صاحبه ، حتى لكنت تراه وهو يمشى مطرق الرأس قادحا زناد الفكر فى الطريقة

الناجعة للعثور عليه ، والوصول اليه . اذ به يرى نفسه سائرا نحو صاحبه وضالته المنشودة ، فتمهل آخذا فى مسيره حتى دنا منه وناداه باسمه : قيس . قيس .

فالتفت قيس ورأى مناديه . بيد أنه لم يعرفه بادىء ذى بدء ولحظ « ارمانيوس » منه ذلك فخف اليه حتى اقترب منه ومد يده اليه مصافحاً مسلما قائلا له : —

الا تعرفنى ؟ الست انا صديقك « ارمانيوس » ؟

عندئذ اعاد (قيس) النظر فيه فتحقق انه صاحبه العزيز ، ومالبث ان حياه وأدى له الترحيب ، والتجلة والتكريم قائلا على الفور :

اهلا ، وسهلا ، ومرحبا ، بالصديق القديم ، والحبيب الحميم ، لا تؤاخذنى ايها العزيز فانى لم اعرفك قدبما بهذه الملابس . وسلم عليه سلام الاشتياق وأبدى له ما به من لواعج الاشواق . ثم تمشيا جنبا الى جنب متجهان سمت النزل الذى اقام به (ارمانيوس) ودخلا غرفته وجلسا يتسامران فى المحادثة والمباحثة . سائلا كل منهماصاحبه عن حاله وشأنه .

وبينما هما كذلك اذ حانت التفاتة من « قيس » فوقع نظره على الصناديق الموجودة بالغرفة وعلى الرجلين اللذين يقومان بخدمة القائد ، والجميع فى ملابس الاعراب فأيقن بذكائه الفطرى أن الجمع على أهبة الرحيل الى سفر بعيد لقضاء مهم خطير .

فسأل ارمانيوس قائلا — انى أراك على استعداد لسفر طويل . فما هى وجهتك ايها الصديق ؟

فاجاب ارمانيوس .. أن وجهتى ارض الحجاز .

فقال قيس : ولماذا ؟

فاجاب : انى ازمعت السفر مع هذين الرفيقين للنزهة دون علم الامبراطور ، وابتغى أيضا من هذا التخفي أن لايعلم أحد من رجال دولتنا بسفري هذا . وايضا لايخفى عليك أن على من يريد الدخول الى الحجاز أن يلبس اللباس العربى المألوف لاهل ذلك البلد لكى لا يكون عرضة للأخطار وانى جئت القدس معللا النفس بلقائك . وقد وفقت (والحمد لله) فهلا تقبل مرافقتي فى هذه الرحلة لاستانس بك ، واسترشد برأيك ، واستعين بمشورتك وفطنتك ، لما أعلم وأعرف من أن العرب لا يغدرون صاحبا . ولا يخونون صديقا ؟

فاطرق قيس برأسه هنيهة ، واخذ يعبث بشعيرات لحيته مفكرا . ثم رفع رأسه قائلا :

قل لى ما الذى حدا بك للسفر الى الحجاز ؟

فاجابه قائلا : — قلت لك ان الذى حدابى للسفر الى الحجاز هو النزهة والشوق والتوق لرؤية تلك الاماكن التى كثيرا ماسمعنا عنها انها كعبة آمال (العرب) وفخر مجدهم وسؤددهم ، وايضا التحقق من عاداتهم ، واخلاقهم ، وترويح النفس بمناظرها الطبيعية .

وبعد أن فكر (قيس) قليلا قال : انى قبلت مرافقتك فى رحلتك هذه فهلم بنا الى الفندق الذى نزلت به فان به رفيقا لى يدعى (حمد) قداقبل قريبا من الحجاز دسانا نستصحبه فينفعنا فى رحلتنا

فأبدى ارمانيوس اشارة الموافقة ؛ وقاما من فورهما ذاهبين الى الفندق وعند وصولهما الى بابه نادى (قيس) (حمد) فأجابه بصوت مستبين سمعاه معا : لبيك ياأخا العرب .

(أرمانيوس ، وقيس ، وحمد)

فى الحال جاء بدوى طويل القوام ، عريض الا كتاف ، خفيف العارضين يبدو على مخايله وملامحه انه فى سن الار بعين وهو عارى الرأس حافي القدمين ، ملتحف بشملة بيضاء تغطى بدنه يلف بعضها حول عنقه ويترك منها زائدة ينشرها على رأسه اذا اشتد الحر .

فلما نظره ارمانيوس استغرب منه هذا الزى . وسأل عنه قيس .

فقال : انه حجازى من اهل المدينة .

(اما حمد) فانه عندما دنا من (ارمانيوس) ونظر اليه بهره ما به من لباس فاخر ، فظنه اميرا من امراء غسان ولكنه لم يؤكد ذلك اذ رأي بيا ض محياه وزرقة عينيه ، فسكت مكفهراً ولم يهش له .

فابتدره قيس قائلا : ان الامير ليس من غسان كما يخيل اليك فلا تنقبض لمرآه

فاجاب . حمد . اذا كان قد جاء لعند منزلنا ، واستانس بنا فلا باس بعد ذلك من أن يكون غسانيا ، اوعراقيا ، او روميا .

فقال (ارمانيوس) بلغة عربية تمازجها لكنة اعجميه : (بورك فيك يا اخا العرب) ممن انت ؟

فاجا به من أهل المدينة .

فقال (ارمانيوس) هل صحيح أن نبي الاسلام مقيم عندكم . ؟

فاجابه (حمد) بقوله : نعم . فهل تعرف انت المدينة ؟

قال لا : ولكن سمعت انه مقيم بالمدينة ، وان المدينة تغيرت عما كانت . عليه . فهل هذا صحيح ؟ .

فاجابه (حمد) بقوله : نعم لقد تغيرت حال المدينة عما كانت عليه باشراق نور الاسلام .

فقال (ارمانيوس) : سائلا هل نبي الاسلام منكم ام من قريش فى مكة ؟

فقال : ليس منا ، ولكنا قمنا بنصرته ، وافسحنا له مكانا ، وفتحنا له ابواب منازلنا ، وهو مقيم فى مدينتنا وقد سمانا الانصار .

قال (ارمانيوس) أذن انت ذاهب الى المدينة ؟

فاجاب نعم : وانتم الى اين تذهبون ؟

فقال ارمانيوس : الى مكة ، ونرجع منها الى المدينة ، فهل ترافقنا الى مكة ؟

قال (حمد) : حبذا لو كان ذلك فى الامكان

قال أرمانيوس وما يمنعك من السير معنا الى مكة أبعد المسافة أم ماذا ؟

قال (حمد) : ان بعد المسافة لايمنع من المسير الى مكة . لو لم يكن اعداؤنا فيها لنا بالمرصاد .

قال ارمانيوس : واى الاعداء تعنى ؟

فاجابه (حمد) اعنى قريشا اقارب نبينا فانهم لايزالون يتحينون الفرص للفتك به ، وهو انما جاء المدينة فنصرناه على ما قدمت لك وقد تحالفوا على عدائه واختصامه .

فاخذ ارمانيوس فى التفكير فعرف أن فى الطريق بين مكة والمدينة خطرا لما بين أهل البلدين من العداء . وقال فى نفسه : مالنا وللذهاب الى مكة ، فلنكتف بالاستفسار من اهل المدينة ، ثم رجع عن هذا الخاطر وقال : لا — لا . لا فائدة من ذلك لان (محمدا) ولد في مكة . فيجب على والحالة هذه أن ابحث عن اصله ودعوته من نفس الناس الذين حضروا ميلاده ، وشهدوا نشأته ، ومن الذين هم ألد أعداء له . فربما حدا باهل المدينة حبهم له وإيمانهم به الى الكذب والتمويه عليّ فى روايتهم لى . فيذهب تعبى ادراج الرياح ، وأصبح بذلك خائنا ملكى ، مضيعا أوامره . فلنذهب الى مكة كيفما كان الحال . ومهما كلفنى الأمر .

والتفت الى (حمد) قائلا :

هب اننا تركناك بالمدينة فهل فى طريقنا الى مكة من خطر ؟

فاجابه بقوله : لا بأس عليكم اذا سلكتم طريقا معلوما ، ولو أنكم كنتم من دعاة الاسلام مثلنا ، لكنتم بمسيركم فى خطر ولكنكم غرباء ، ولعل الافضل ان تكونوا فى قافلة فتمسون فى مأمن تام . واذ لاخوف عليكم اصلا ، فلما وصل بهم التفاهم والتفاوض الى هذا ذهبوا جميعا الى السوق لابتياع مايلزم لهم في سفر كهذا واعدوا جميع العدد من جمال وخيل ومياه وزاد وماشا كل ذلك .

قال (قيس) : نركب نحن الجميع خيولنا ونستصحب معنا اربعة جمال لحمل الماء والزاد على أنها تكون ذخرا لنا عند الاضطرار . لان الجمال اصبر على العطش من الخيل .

فوافقه (ارمانيوس) واخذوا يستعدون للرحيل .

السفر

فى صبيحة اليوم التالى احضروا الجمال وحملوا عليها أحمالهم ، وترك (أرمانيوس) بقية الامتعة فى الفندق ريثما يعود اليه . وركبوا الجياد الصافنات وقاد الخدم الجمال ؛ ولبثوا سائرين الى أن صاروا خارج القدس . ورأوا أنفسهم تلقاء قافلة على أهبة المسير فى طريقها الى عمان . فجلسوا للاستراحة قليلا ، (وأرمانيوس) على قلق لا يهدأ له بال الا بالمسير حبا فى تعجل قضاء أوامر مولاه الذى غادره فى اضطراب شديد . ثم انهم ما عتموا أن ركبوا خيولهم وجدوا فى السير والترحال حتى قضوا يومين ، واذا بالقافلة التى كانت تسير أمامهم قاصدة عمان غابت عنهم . فساروا فى طريقهم ، وأشرفوا على واد به ما

وقد غطته الاشجار من الجانبين فوقفوا أعلاه ناظرين الى أسفله فها لهم منظره لسكون الطبيعة وهدأة الليل لا يسمعون سوى نقيق الضفادع ، وحفيف الشجر وقد شعروا ببرد خفيف فترجلوا عن جيادهم ونزلوا الوادى يقودون الخيل وراءهم وبصيص ضوء القمر لم يكن ليريهم الطريق لضعف نوره، وكانوا يسمعون لوقع حوافر الجياد دويا يردده جوانب الوادى حتى لكان يخيل لهم أن فرسانا آخرين قادمون اليهم ، ثم لا يلبثون أن ينتبهوا الى أنه الصدى على أن هيئة المكان كانت مرهبة ، وقد تسلطت عليهم بالرهبة والهيبة . وظلوا سائرين حتى دنوا من الماء ونظروا متفرسين فى موقفهم فاذاهم فى واد بين جبلين تكسوه النباتات تتخللها الاشجار الباسقة .

فترجلوا عن جيادهم ، وشدوا الخيول على الاشجار ، وأمروا الخدم بعقل الجمال وهم على مسافة من الماء ريثما يأخذون راحتهم قبلما يتناولون الماء . ثم سار (أرمانيوس) ورجاله الى الماء فغسلوا وجوههم وأيديهم وشربوا ، ونزع (أرمانيوس) كوفيته وعقص له الاعرابى شعره مثل العرب لئلا يرف على كتفيه ووجهه ، ثم هيئوا ما معهم من فرش وافترشوه وجلسوا والخيل الى جانبهم تصهل صهيلا وتضرب الارض بحوافرها طلبا للماء .

ثم اتكأ (ارمانيوس) على العشب وجلس (قيس) الى جانبه و (حمد) والجنديان . وبعد أن تناولوا الطعام أخذ (قيس) يحدث (أرمانيوس) وارمانيوس منصت الى نقيق الضفادع وحفيف الاوراق والاغصان وخرير الماء ، ولولا اهتمامه وولعه بتنفيذ اوامر سيده الامبراطور واشتياقه لسماع أنباء (محمد) لكان قد تملكه الرهب ، والتهيب من منظر ذلك الوادى ، ولكنه ما برح متهيجا من كلام (هرقل) تتقاذفه الشواغل .

ولبث صامتا لا يتكلم فقام (قيس) وأشار الى الاعرابى والجنديين

أن اتبعونى فتبعوه وذهبوا . فحلوا الخيول والجمال ، وساقوها الى الماء ، وبعد أن رويت اعادوها الى أمكنتها ورجعوا الى (أرمانيوس) . وكان التعب قد أخذ من أرمانيوس مأخذاً عظيما . فالتف بعباءته كما يفعل العرب وغلبه النعاس فنام ، ونام الجمع الا قيسا وحمدا فانهما تناوبا الحراسة الى الصباح .

وعند شروق الشمس تنبه أرمانيوس ورفاقه وأحسوا بالجوع . فقال أرمانيوس لقيس : هلم نفطر

قال قيس : ان على مقربة منا ديرا نذهب اليه ونفطر فيه ، ونقيم يوما ضيوفا ، ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين .

فاجابه حسناً هيا بنا .

وامتطوا متون جيادهم ، وساقوا ابلهم ، ولم يكن الا قليل من المسير حتى أشرفوا على بناء تعلوه قبة فوقها الصليب ، فعلموا انه الدير وفيه الكنيسة . فنزلوا وبنزولهم استقبلهم الرهبان ورحبوا بهم وانزلوهم على الرحب والسعة . هنالك هب (ارمانيوس) والجنديان ودخلوا الكنيسة فصلوا ، وبعد اداء الصلاة رجعوا الى « قيس » و « حمد » وقضى الجميع نهارهم فى الراحة والهنا والشراب . وكان طعامهم طعاما قاصرا على الوان بسيطة لكنها لذيذة .

ولقيا من حسن الوفادة على أهل الدير ما أنساهم مشقة السفر وباتوا هذه الليلة فى الحديث والسمر . وعند شروق نور الصباح زودهم الرهبان ما يلزم لهم من زاد وعلف وساروا طول نهارهم الى أن آذنت الشمس بالزوال فباتوا ليلتهم ، واصبحوا يقصدون (معان) فما دنوا منها الا وقد مالت الشمس الى المغيب ، وبوصولهم اليها عرجوا عنها وساروا فى طريقهم الى الحجاز .

وحينما طلع عليهم النهار كانوا قد تبطنوا الصحراء ، وبعدوا عن البلقاء فاحس (ارمانيوس) بالانقباض ، والوحشة . بيد انه تجلد بما فطر عليه من الشجاعة والبسالة ، وحبه لبلاده ، واوطانه ، وسيده الامبراطور ، وبعد مسيرة عدة ايام اشرفوا على جبال المدينة .

فقال « حمد » : ها نحن صرنا على مقربة من المدينة ولا نلبث أن نشرف عليها .

فقال (قيس) : انى اعرف المدينة وطرقها فقد نزلتها منذ اعوام .

فاجابه (حمد) : لاتلبس ان تدخل اليها فترى ماطرأ عليها من التغيير والتطور بعد نزول النبى (محمد) فيها فقد بنيت بها المنازل ، وكثر السكان وازداد العمران بكثرة من هاجر اليها من اصحاب الرسول وغيرهم .

الوصول الى المدينة

كل ذلك يجرى حديثه (وارمانيوس) صامت يسمع ويكتب مايسمعه وما يهم معرفته . بعد هنيهة اشرفوا على المدينة فاذا هى فى منبسط من الارض تحدق به البساتين والغياض من كل صوب .

قال (حمد) هذه هى المدينة المعروفة قدما (بيثرب) فهل تنزلان بها ريثما تصبحان وتجدان من يرافقكما الى مكة . ام لكما رأى آخر ؟

فقال (ارمانيوس) : انى افضل أن أبقى هنا مدة لارى المدينة واهلها واشاهد صاحبكم واصحابه بعد أن امتلات اذنى بأحاديث أوصافه وحروبه .

فانحدروا حتى صاروا على مقربة من السور ، وكانوا بحيث لايرتاب بهم احدا ممن يراهم . كيف وفيهم (حمد) وهو احد الانصار ، وقد ظن كثيرون انهم انما جاءوا

يلتمسون الاسلام لوفرة من كان يفد على المدينة من القبائل فى تلك الايام ، وأكثرهم كانوا يردون رغبة فى الاسلام .

ولما دنوا من السور قال أرمانيوس نريد ان نمكث هنا كيما نستريح هنيهة ثم نترك خيولنا وجمالنا فى عهدة الخادمين ، وندخل المدينة خفافا .

فقال حمد : اما انا فلا استطيع الصبر عن السير الى المدينة الساعة ، فارجوا ان نلتقى هناك .

فقالوا : سر فى حراسة الله ، فودعهم ومضى . فلما فارقهم التفت قيس الى ارمانيوس وقال :

أراك راغباً فى دخول المدينة ؟

قال نعم :

قال (قيس) : ولكننى لا أرى ذلك .

فساله (ارمانيوس) ولماذا ؟

قال : ألم تنبئنى حينما كنا بالقدس بانك قاصد مكة للتفرج عليها . فربما عاق عائق عن وصولنا بله الخطر الذى قد يصيبنا بدخولنا المدينة .

قال (ارمانيوس) : وأى خطر علينا من ذلك ؟

قال : انا عربى غريب الديار ، وانت وجماعتك رومانيون لا تشبهون العرب بشئ) فاخش أن يرانا أحـد جواسيس أهل مكة فيعرقلون عليكم رحلتكم .

قال (أرمانيوس) : معك الحق وعدل عن دخول المدينة .

الرحيل

كانت الشمس قد مالت الى الاصيل فارسلوا أحد الاعراب من الموجودين على أبواب المدينة يبتاع لهم زادا وعلفاً فعاد عند الغروب يحمل لهم ماطلبوا فاكلوا وعلفوا الجمال والخيول وباتوا تلك الليلة ثم اصبحوا فى الغد مبكرين معتزمين الرحيل والتسيار واستاجروا خادمين من الاعراب ليكونا لهم رفيقين فى الطريق، وملئوا القرب ماء، وركبوا اجيادهم يريدون مكة. وكان قيس لم يزل يذكر طريقا تؤدى الى مكة عن آبار بدر غربي المدينه. ففضل المسير فى طريق تلك الآبار ليبيتوا عندها ثم يملئون قربهم ويسيرون

أما (ارمانيوس) فلم يكن يعرف شيئا عن تلك الطريق. وكان اعتماده على (قيس) فى كل شيء

فساروا واطول النهار فى تمهل وبطء علما منهم أن الآبار غير بعيدة عنهم. وانهم يصلونها لا محالة. فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم بغية الاستراحة، وحلوا الاحمال وجلسوا الى الطعام ثم توسدوا الاعشاب تحت اشجار النخيل يلتمسون القيلولة.

وبانتباهم من هجعتهم هذه قاموا فركبوا جميعا وساروا يقطعون السهول والاودية حتى خيم الغسق. وقد نفذ ماؤهم ولم يصلوا الى الآبار. فقلق قيس وخشى أن يكون قد اخطأ الطريق فساق جواده الى اكمة اطل منها على منخفض وعلم بما يحيط به من الجبال انه المكان المقصود، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك لبعد المكان وظلمته فعاد ادراجه الى ارمانيوس متنبئا بما رأى وعلم.

فاتفق رأيهما على ان يتركا الجمال والرجال، ويسرعان بجواديهما ليتفقدا المكان فاذا تحققا انه المقصود شربا. وسقيا الجوادين حيث لا صبر للخيل على العطش. فنهرا الجوادين وسارا في ارض وعرة والجو هادىء لا يسمع فية غير وقع الحوافر عن تلك الصخور، وكان الظلام آخذا فى الاشتداد. ولكن القمر كان قد

رسل، أشعة ضئيلة قبل الطلوع بشرى بالقدوم . ولماوصلا الى قمة الجبال المحيطة بمكان الآبار أخذا فى الانحدار وهما ينظران الى طلوع القمر بفارغ الصبر املا فى أن يساعدهما على استطلاع المكان ، ووصلا الى منبسط الوادى ، ونظرا فيما حولهما ، فاذا هما فى وادٍ مظلم تحدق به الجبال من أكثر جهاته ونواحيه ، لايسمع فيه صوت ولا يهب فيه نسيم ، وكان القمر قد طلع لكن أشعته لم تكن قد أدركت أسفل المكان بعد . فتحقق قيس أنها الآبار التى تعرف بآبار بدر ثم استنار الوادى بضياء القمر ، وتامل قيس فتحقق انه هو بعينه ورأى الاماكن التى كانت تقام . فيها السوق من كل عام وكانت ترد عليها وتجتمع فيها القبائل المختلفة للبيع . والشراء . والاخذ والعطاء ولكنه أحس فى المكان وحشة وتخريبا وكأنه قد هجر منذ اعوام .

ثم قال فى نفسه لعل الليل هو الذى يربنى ذلك ، فأخذ يبحث عن محل الآبار وارمانيوس فى خلال ذلك صامت لايبدى حراكا ولا ينبس ببنت شفة .

وأخيراً ترجلا عن جواديهما وطفقا يتوداناهما وقد تهيبا المكان وندما على هذه المخاطرة وكان أشدهما ندما (قيس) لانه جرّ صاحبه وصديقه الى الخطر . ولكنه تجلد واستمر سائراً وأرمانيوس الى جانبه لا يتكلمان الى أن وصلا الى حفرٍ شتى فصاح قيس . هذه هى الآبار قد اهتدينا اليها

فاقتربا منها وكانا قد اعدا اوانى للماء . فالقى (قيس) بالدلو ، فسمع صوته يصادم قعر البئر . والبئر فارغة . فعجب لذلك ثم مالبث ان سمع حركة ورأى حيوانا هب من البئر وفر هاربا . فنظرا فاذاهو يشبه الثعلب أو الكلب فازدادا إعجابا واندهاشا وبغت (ارمانيوس) وقال .

ماهذا (ياقيس) ؟ اتخرج من الآبار ثعالب !

قال (قيس) انى لفى منتهى العجب . والاستغراب من هذه المصادفة أن المكان

هو هو بعينه قد نزلت فيه منذ بضع سنوات . وشربت من مائه . ورأيت الناس يستقون منه .فلا أدرى ماذا حدث له. وماالذى جرى والآن يخطر ببالى أن أنزل هذا االبئر فانى اراها قريبة الغور لعلى استطلع من امرها شيئاً . فاجمع العزم . ونزل . فما كاد ينزل ثلاثة اقدام حتى ادرك العمق واحس كانه واقف على عظام . فمد يده وامسك بها فاذا هى مدفونة كلها . او بعضها تحت التراب واستخرج شيئا منها فوجدها عظاما طويلة ، أومستديرة و اخرى على اشكال شتى فاقشعر بدنه اذ علم انها عظام آدميين .

فصعد فى الحال . وقد هاله الموقف . ولم يشأ أن ينبيء صديقه بما رأى لئلا يستولى عليه الرعب . وتاقت نفسه الى استجلاء الحقيقة عن تلك الجماجم والعظام . ولكنه كتم ذلك واشار الى ارمانيوس بالعودة . فاخذا فى العودة وارمانيوس ساكت ينتظر أن يسمع شيئاً من قيس . فلم يفه (قيس) بكلمة . وظلا سائرين فى ذلك المنخفض . وارمانيوس يتوقع حديث (قيس) ولكن قيساً غريق فى التفكير يفكر فى غريب ماراه والليل هادىء لا يسمع فيه الا صوت وقع حوافر الجوادين .

فلما ابطأ (قيس) فى المحادثة . هم (أرمانيوس) يسأله عما رأى واذا بصوت جمل منحدر يهدر عن قرب .

فوقفا منصتين ليتعرفا جهة الصوت فاذا هو آت من أعلى الجبل أى من الجهة التى جاءا منها أولا . فظنا أن الجنديين أرسلا أحد الخادمين للبحث عنهما وافادتهما بحادث حدث . وبينما هما ينظران ماذا الذى يكون . اذ بالراكب فى غير لباس الخادم . فتأملاه فاذا هو رفيقهما (حمد) الذى قدفارقاه فى المدينة ولما دنا منهما ناداهما فعرفاه ، واجابه قيس ووقع التعارف ولما أن وصل (حمد) اليهما قال . ماالذى جاءبكما الى هذا المكان ؟

قال (قيس) جئنا نلتمس الماء .

فقال : اتلتمسون الماء من مكان قد اصبح مدفنا للجيف؟

قال : قيس : انى ما عهدته الا مستق يحوى الماء العذب وقد عجبت لما تقول ولولا انى رأيت الجماجم بنفسى ولمستها باناملى لارتبت فى قولك .

فعجب (ارمانيوس) لذلك وقال . اتقول الصدق ياقيس ؟

قال نعم ايها الصديق . لقد لمست بيدى الهياكل البشرية . وكتمت خبر ذلك عنك لئلا تقع فى انبهات وانزعاج .

قال (ارمانيوس) : قد عرفت الآن سر سكوتك طول هذه البرهة الطويلة ، وأنا فى تلك الاثناء اتوقع حديثك بعد نزولك الى قاع البئر وصعودك منها . ثم التفت الى (حمد) قائلا :

ما الذى حول هذه الآبار الى عظام ؟

فقال حمد : ان لهذا نبأ طويلا ساشرحه لكم متى جلسنا ، وقد جئتكم بالماء ووضعته عند رجالكم وراء هذه الاكمة وقد تستغربان مجيئى اليكما فى هذا الليل على غير موعد منى . والسبب فى ذلك انى لبثت فى انتظاركما اليوم فى باب المدينة فلما استبطأتكم سرت افتقدكم فلم اجدكم ، فعلمت من قرائن مختلفة انكم سرتم نحو هذه الابار . وبما انى عارف بتخريبها و اقفارها حملت اليكم قربة ماء ، وسعيت اقتفى اثركم حتى وصلت الى جماعتكم . فانبئونى بانكما تطلبان الماء من هنا . فسارعت اليكما وجئت على عجل قال ذلك واشار اليهما بان يتبعاه فركبوا وساروا جميعا وكلاهما ممتلىء عجبا و دهشا من امر ذلك المكان بعدان علما منه ماعلما ، حتى وصلوا الى أعلى الوادى و تحولوا نحو رفقائهم الذين كانوا فى انتظارهم .

ولما وصلوا ترجلوا ، وجلسوا يتناولون الطعام والشراب ، وسقوا الخيل والجمال ، وقيس وارمانيوس يترصدان استماع نبأ الآبار بفارغ الصبر .

وكان ارمانيوس يقول فى سره انه ليلزمنى الاصغاء الدقيق والانتباه التام لهذه الواقعة العجيبة ، وعلى ماأظن قد دنوت من المرحلة الأولى من مهمتى ، وهذه اول الاخبار جاء من طريق غير طريق المباحثة والتساؤل

ولما أن استتب بهم المجلس قال ارمانيوس يخاطب (حمداً) ارانى فى قلق شديد ، وشغف ماعليه مزيد ، فهل تتكرم علينا بقص نباء تلك الابار؟

قال (حمد) : ان نبأها غريب وشرحه يطول فاذا كنتم على استعداد لسماعه الليلة قصصته عليكم والا ارجأته الى الغد .

فصاح (قيس) وارمانيوس معا قائلين : بل قصه علينا الليلة فان القمر قد ابتدر وتاقت نفوسنا الى السمر ، الا اذا كان فى ذلك تثقيلا وكلفة عليك .

قال : انى لعظيم الرغبة فى قص هذه الحادثة اذ بها يفتخر المسلمون كما ستسمعون ثم اصغيا لكيلا يفوتهما دقيق ولا جليل منها .

قال (حمد) انى اقص عليكم نبأ واقعة هى أعظم الوقائع التى حدثت فى الاسلام من حين ظهوره ، وقد شهدها رسول الله بنفسه وكنت فى عداد المحاربين فرأيت ماتشيب من هوله الاطفال .

قال ارمانيوس : من هم الذين حاربتموهم .

قال : قريشاً اقرباء الرسول.

فسأله . وكيف يكونون اقربائه . ولا يقومون بنصرته . بل يصيرون اعداءه

فاجاب : ان لذلك لخبرا طويلا لا استطيع بسطه الليلة . ولكنى اذكر لكم ملخصا .
ليس يخفي ان نبينا لما قام يدعو الناس الى الاسلام لم يجبه الا نفر قليل من قريش

وظل اعمامه ، ومعظم قرابته على دين آبائهم واكثرهم كانت نفرتهم من هذا الدين خوفا على تجارتهم ان تبور وتكسد لما فى الاسلام من تحقير الاوثان والامر بنبذها وابطال عبادتها ، وايضا لاعتقادهم بأن فى هدمها ونبذها بواراً لتجارتهم ، وانحطاطا من قدر الكعبة فتقل الحجاج اليها ، ومعيشة قريش واهل مكة من التجارة ، ولا تجارة عندهم الا بالحجاج فضلا عما يتمتع به القرشيون من السيادة والنفوذ ببقاء الكعبة والاصنام فأنهم حجابها وسندتها ولهم بذلك أكبر الفخر ، والسؤدد .

فهذه الأسباب وغيرها حملت قريشا على مقاومة نبينا ، ولكنه لم يحرم انصاراً شدوا أزره ، وصدّقوا بدعوته ، ومنهم جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها على أنهم لم يستطيعوا حمايته من الاذى والاضطهاد ، فهاجر وهاجروا معه الى مدينتنا يثرب التى كنا عندها امس ، فاستقبلناه بالتجلة والترحاب ، والاكرام والاحترام ، فنزل بيننا على الرحب والسعة ، وسررنا بهذا الشرف الخطير العظيم .

ففى السنة الثانية للهجرة كانت واقعة بدر الكبرى ، وسببها أن ابا سفيان بن حرب كان قد قدم من الشام فى ابل لقريش عليها اموال كثيرة ؛ ومعه ثلاثون رجلا ، اوأربعون من قريش كلهم أعداء الاسلام ، وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام للاستقاء فى طريقها الى مكة . فلما علم الرسول بمرورهم انتدبنا للخروج اليهم . فعلم ابو سيفان بذلك فانفذ بعضا من رجاله الى مكة يستنفرون الناس للقدوم على الآبار لحماية أموالهم . فكان الرجل مَنهم اذا وصل الى مكة وقف على بعيره ، وقد جدعه ، وحول رحله ، وشق قميصه وهو يقول . ياقريش : اللطيمة ، اللطيمة . ان اموالكم مع ابى سفيان قد عرض لها (محمد) واصحابه . لا ادرى اتدركونها . الغوث . الغوث .

فتجهز قريش سراعا ولم يتخلف من اشرافهم الامن عجز عن السير . فبلغ عدد السائرين الف رجل ، ومئة فرس ، وسبعمائة بعير . أما رجالنا فكان عديدهم ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، معهم سبعون بعيرا ، وفرسان

فساروا رجالنا يتقدمهم النبي حتى وصلنا الى مكان يدعى الصفراء . فبعث النبي من يتجسس خبر أبي سفيان فقيل له انه بالقرب من (بدر) فجمعنا فى مجلس واحد نحن والمهاجرين واستشارنا وكان قد استطلع قوة العدو ، واطلعنا عليها ، وقال ماذا ترون هل نحاربهم ؟

فاجبناه جميعا بصوت واحد موافقين .

وقال الانصار : (والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك . وما نكره أن تلقى العدو بنا غداً لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله) .

فلما سمع هذا المقال والجواب أثنى على الجميع وسرنا جميعاً وكان أبو سفيان قد نزع الى الخديعة فى خلال تلك الفترة ، فسار عن يمين الآبار حتى تجاوزه والعير معه فلقى رجاله قريش فى مكان يقال له (الجحفة) فخاطب أشراف قريش قائلاً : هذه العير والأموال قد نجت فارجعوا الى مكة .

وكان من جملة الجمع رجل يدعى (أبا جهل) ابى الاأن يمر بالآبار ، فساروا جميعاً حتى دنوا من الوادي ، أما نحن فسرنا نطلب الآبار حتى نزلنا عندها ، ومنعنا عنها الاعداء ، وتقدم زعيم الانصار منا وقال .

يارسول الله : نبني لك عريشا من جريد فتكون فيه . وندع عندك كائبك ، ثم نلقى القوم ، فان اعزنا الله واظهرنا عليهم كان ذلك مما احببناه ، وأن كانت الأخرى ركبت على ركائبك فلحقت بمن وراء لنا من قومنا ، فقد تخلف

عنك اقوام ما نحن باشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا انك تلقى حربا ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويحاربون معك .

فاثنى الرسول عليه خيرا وبنينا له عريشا ، وبعد قليل رأينا غبار قريش ثم ظهرت رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح ، يتقدمهم امراؤهم فى افخر اللباس ، وكانوا اهل بذخ وترف ، وقد اخذت بهم الخيلاء والفخر ، فلما دنوا منا عسكروا امامنا ثم ارسلوا رجلا منهم ليستطلع عددنا ، فجال بفرسه قليلا ، وعاد فأنبئهم بقلة عددنا ،فتشاوروا فى الأمر طويلا . فمنهم من اشار بالرجوع ، وصاروا بين ان يرجعوا أو يهاجموا ، لأن الماء فى حوزتنا فاذا لبثوا مكانهم هلكوا عطشاً .

فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم ؛ وقلتنا . فاقر رأيهم على الهجوم . فخرج منهم افراد طلبوا البراز ، فبارزناهم ، فقتلنا بضعة من كبارهم . فهجم علينا آخرون منهم ، وهجم بعض منا والتحم الفريقان وكان يوما عظيما استولى فيه عظيم الخوف على المسلمين ، لما رأو من قلتهم وكان رسول الله يقول وقد رأى احتدام الحرب (اللهم ان تُهلك هذه العصابة لن تعبد فى الأرض ، اللهم انجز لى وعدك الذى وعدتنى) كان يقول ذلك وهو ينظر الى رجاله داعياً لهم ، وكان واقفا بباب العريش سعد بن معاذ . وجماعة من الانصار يحرسون رسول الله . ولقد رأيت فتك المسلمين بالمشركين ما ينشرح له الصدر خصوصاً عند ما رأيت ابا جهل زعيم القرشيين مجندلا على الثرى ، يتخبط فى دمه ؛ وكان أشد الناس عداوة للنبي ، ورأيت غيره من امرائهم قتلا منهم حنظلة بن أبي سفيان وغيره .

ومن غريب ماشاهدت العينان من بسالة المسلمين فى ذلك الوقت وتفانيهم فى نصرة الاسلام أن معاذ بن عمر بن الجموح كر على ابى جهل المتقدم ذكره وكان محاطا بزمرة من رجاله فاخترقهم اليه . وضربه ضربة اصابت ساقه ، فهجم

عكرمة بن ابى جهل على معاذ فضربه ضربة جزمت يده . فرما بها على عاتقه ولكنها ظلت معلقة بجلدة من بدنه ، ومازال معاذ يقاتل ذلك اليوم ويده تتجرجر وراءه ، فكنت انظر الى يده واشعر كان يدى فى مثل ذلك ، اماهو فلم يكن يبالى فلما أن آذته وعاقته عن القتال ، وضع رجله عليها وتمطى حتى انفصلت وعاد الى الحرب . وكان فى جملة المشركين العباس بن عبد المطلب فأنه كان لم يزل متردداً بين الاسلام و ماكان عليه اجداده . فلما قدم المشركون بدر قدم معهم مكرهاً فأسر فى جملة من أسر ، ولكن أطلق سراحه أخيراً .

ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى رأينا المشركين هموا بالفرار فقبضنا على جمع كثير منهم ولما انقضت الحرب أمر رسول الله أن يؤتى بجثث القتلى ، فجىء بها وأجمعت أكواما ومن بينها جثث نخبة امراء قريش فالقيت فى الآبار وهى التى رأيتم بقاياها الليلة ثم جمعت الغنائم . وكانت هذه المعركة قاضية على شوكة قريش ، اذ قتل جمع من ألد أعداء الاسلام ، وأشدهم بطشاً ، ومات من جرائها ابولهب (عم الرسول) وكان شيخا كبيرا لم يحضر الحرب ، فلما بلغته نكبة قريش اشتد الامر عليه ، فما انتضى اكثر من تسعة أيام حتى جاءه وافد الحمام .

ومن بعد هذه الكارثه أمسى عميد قريش أبو سفيان وصارت الآبار بعد المعركة مهجورة ، اذ القوا الجثث فيها ، فأنتنت ، و بطل موسم الآبار السنوى من ذلك الحين .

هذه هى قصة الآبار فاشكروا الله تعالى على أن حفظكم ولم تلقوا وحشاً ضارياً ، ولا مايشاكل ذلك . فانبت الليلة هنا ، ونعد في الغد الى المدينة نلبث بها قليلا ثم تسيرون منها فى قافلة الى مكة ، والا فاختاروا لأنفسكم مايحلوا .

فاعجب أرمانيوس بكرم أخلاق الرجل ، وطيب عراقه ، وغيرته عليهم ، ورغبته فى انقاذهم وقال .

(اننا شاكرون حسن صنيعك ، جزاك الله خيرا ، وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع أن نكون طوع اشارتك نسير معك حيثما سرت ولكننا نرى الاسراع فى السير الى مكة لأمر هام .

وكان قد مضى معظم الليل ، وغلب النعاس على الجميع فنهضوا للرقاد ، وعند الاصباح خيرهم حَمَدْ بين المضى معه الى المدينة ، أو الشخوص تواً الى مكة . فأثنوا عليه خيراً وكاشفوه بانهم يؤثرون المسير توا الى مكة مع اعتزام المرور بالمدينة فى عودتهم ، فأظهر حبه لما يستحبون ، وأوصاهم بأمور تتعلق بسفرهم وودعهم عائداً إلى المدينة وهم فى الاستعداد للسفر .

مواصلة السير الى مكة

فى صبيحة اليوم التالى ركب أرمانيوس وقيس ومن معهما من الخدم، وساروا ميممين شطر مكة لا يلوون على شيء، وفى الغروب أشرفوا على بقعة من الارض يكسوها المرعى وفى أحد جوانبها شجرة على عين ماء، تعود المارة الجلوس اليها التماساً للراحة من عناء السفر اثناء المسير بين مكة والمدينة فجلسوا الى الشجرة، واوقدوا ناراً يستضيئون بها، ويستخدمونها فى طهى الطعام، ولما نضج اكلوا وجلسوا للسمر ريثما يغلب عليهم النعاس، فلما انقضى الهزيع الاول من الليل هموا بالهجوع، وقد أمروا الخدم بأن يتناوبوا السهر خشية مفاجأة الطوارىء.

وعند ماانفلق الاصباح ركبوا صهوات الخيل قاصدين مكة وبعد مسير يوم وصلوا اليها وعندما دخلوها رأوا اهلها في هرج ومرج لاحديث لهم الا (محمداً) فساروا فى طريقهم لايشتبه فيهم أحد لكثرة الوافدين على الكعبة من الغرباء واراد ارمانيوس المسير الى الكعبة فى مساء ذلك اليوم لترويض الطرف بمرآها، ومعرفة حقيقتها، واكتشاف منظرها. فنهاه قيس عن المسير، وقال له:

هلم بنا اولا ننزل فندقا فنحط به رحالنا. وندع به جمالنا ونستريح من مشقة السفر، ثم فى الصباح نرد على الكعبة. وولوا وجوههم شطر فندق كان على مقربة من الكعبة نزلوا فيه، وبدلوا ثيابهم، وتناولوا طعامهم، وصرفوا الخادمان الاعرابيان اللذان أتيا بهما من المدينة، وارتاحوا بقية يومهم، وقيس اثناء ذلك يفكر فى مجيء صاحبه الى مكة ويتحاشى سؤاله، ولكنه بعد أن أمعنوا فى المحادثة، والمؤانسة لم يربدا من التساؤل والتفاهم، فقال يخاطب ارمانيوس بقوله لقد وصلنا الى مكة بحمد الله سالمين، وهانحن الآن بين ارجائها، وفى صميم ساحتها فهل لك ان تصدقنى بما دعاك للحضور اليها لعلى أكون قادراً على

مساعدتك، وخدمتك، وتسهيل مهمتك.

ففكر ارمانيوس قليلا ورأى من الصواب ان يخبر صاحبه بجلية الأمر وحقيقة الحال لعله يلقى منه مساعدة حسبما قال. فاجابه.

اعلم ايها الصديق انني جئت الى مكة بامر من الامبراطور (هرقل) للبحث عن حقيقة محمد وعن دعوته والاستفسار عن ذلك النبأ ممن يكونون ذوي المام تام بهذا الأمر، ومن اولى الصدق وقد ندبني لأن احيطه بذلك علماً واوافيه بالتفاصيل على جناح السرعة المتناهية لان الامبراطور امسى في قلق واضطراب فكر، وانشغال بال لما سمعه من غزوات رجال محمد لبلاد الشام، وعلى الاخص عندما ورد عليه كتاب محمد يطالبه بالدخول في حظيرة الاسلام، واني لا اكتمك ان الامبراطور اعتمد علي في أداء هذه المهمة، وعهد الى بقضائها وانجازها، فاخذت نفسي بالوفاء ورأيت من واجبي ان استفسر عن ذلك الامر ممن لا يتحيز الى ذلك الداعي ولا يتعصب لما جاء به لتتبين لنا الحقيقة لا لبس فيها. فلما أتى ارمانيوس على آخر كلامه، ووعاه قيس باصغائه واستماعه فكر وقال:

لنسترح الآن وسأسعى لايجاد وسيلة تكفل لك نجاح مسعاك

فاثنى ارمانيوس على صديقه ثناءاً حسنا وبعد أن تناولوا الطعام اخذوا في الرقاد ثم هبا في صبيحة اليوم التالي فقال قيس لارمانيوس بعد أن تناولوا الافطار هلم بنا لنتدبر الامر، ونجمعك بمن هو جدير بأفادتك عن الحقيقة

——...——

المسجد الحرام

خرجا معا وسارا الى ان وصلا الى المسجد الحرام ، ودخلا اليه من بعض أبوابه فرأيا فى ساحته جمعا كثيرا يطوفون ، وفيهم الجالس ، والواقف ، والراكع ؛ وشاهدا ببعض الجهات جماعات جالسين يتحدثون ويتحاورون فسارا هنيهة فى وسط الساحة ، فرأيا بناءاً مربعاً تجلله الستائر ، وقد عرفا من طواف الناس حوله انه الكعبة . بيد انهما لم يقدما على الدنو منها ونظرا الى داخلها عن بعد ، فعاينا فيها احجار قائمة علما انها (الانصاب) ورأيا حول الكعبة وفوقها اصناما هائلة ، واناساً يحلقون ، ويغتسلون عندها فدهش ارمانيوس من ذلك وقال فى نفسه

لولم يكن فى قيام الاسلام الاهدم هذه الاصنام ، وأبطال عبادتها ، لكفي به فضلا . وفيما هو يفكر اذ رأى رفيقه قيس قد ابتعد عنه وذهب الى جماعة من الجالسين واختلط بهم فتبعه ولما اقترب منه وجده يسألهم بقوله .

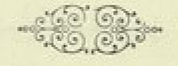
اتعرفون رجلا عارفاً باخبار العرب ، وفرسانهم ، وشعرائهم ، لاننا غرباء ونحب ان نعلم شيئا عن الشعراء والفرسان من الاعراب الذين يقدمون على مكة .

فاجابه احدهم قائلا : يوجد شيخ جليل القدر يقيم بالكعبة ، نهاره كله وهو واسع الاطلاع ، نافذ الكلمة ، موفور الكرامة ، يعرف عن شعراء العرب وفرسانهم مالم يتسنى لغيره معرفته يدعى . الربيع . الا انه لايوجد الآن اذ خرج الى منزله بالأمس لتوعك اصابه .

فساله قيس اين منزله يوجد ؟ فقال : بمر الظهران فى ضواحي مكة . فتركه ومضى مشيراً الى ارمانيوس أن يتبعه فتبعه ولما ابتعدا عن الجمع قال له . لقد اتيح لنا معرفة شخص عساه يقضى لك امنيتك وتقف منه على طلبتك ،

وهو متغيب الآن في منزله لما انتابه من توعك نزل به فهلم بنا نمضى اليه . فابتهج ارمانيوس فرحاً وخرج مع قيس وسارا فى شوارع مكة يسئلان عن مر الظهران وهما غريقان فى بحار الهواجس ، وما زالا يسألان فيدلهما الناس ويجدان السير حتى وصلا الى منزل (الربيع) ولما وصلا طرقا الباب وسألا عن الرجل فقيل لهما انه مصاب بمرض شديد فلا يستطيع ان يخاطب احداً . فعادا على اعقابهما كاسفى البال ، وقد اخذ منهما التعب ماخذاً عظيما و وصلا الفندق والليل قد سدل نقابه ، واجتمعا برجالهما فاكلوا وشربوا ، ثم رقدوا للمنام .

وفى الصبيحة خرجا معاً لاستقصاء اخبار الشيخ (الربيع) فاخذا يتمشيان فى الأسواق فرأيا الناس فى هرج ومرج يتجمعون ، ثم يتفرقون كانهم فى خوف من امر ذى بال ، فعلما أنهم يتحدثون بشأن اهل المدينة ومحمد



الامير زهير وابنته سلمى

فى ثنايا طريقهم مرا بمنزل فخم قد ربطت فى رحابه الخيول ، فعلما أنه بيت أحد كبار الامراء ، فدفعهما حب الاستطلاع للدخول الى ساحته .

دخلا ، ودنوا من الجماعات الموجودة وفيما هما واقفان اذ بأبواب المنزل قد فتحت وخرجت منها فتاة بارعة الجمال تحف بها جواريها ، تفوح منها الروائح الزكية . مرت بين الحضور وأعين الكل شاخصة اليها باعجاب .

فنظر أرمانيوس اليها متفرساً فرأى منها مشية تنم عن رزانة ، وكانت ممشوقة القوام ، ممتلئة الجسمان ، قمحية اللون ، موردة الخدود ، سوداوية العيون كحلاء يحسبها الناظر مكحلة ، فاحمة الشعر معقودته ، قد أرسلت فروعه خصلة واحدة وراءها ، محتوياً على الحلى ، وفى كل من أذنيها قرط من اللؤلؤ ، وفى جيدها قلادة مرجان ، وفى كل معصم دماج ذهبي عريض مرصع بالياقوت ، وفى الاصابع الخواتم من الزمرد والعقيق وقد أرخت على قوامها رداء حريرياً مخططاً بألوان بديعة يغطيها الى الرسغ فلا يكاد يبدوا من اثوابها الا ماهو ازاء الحذاء . وفيما هى خارجة اذ وقع نظرها على ارمانيوس وهو واقف بجانب الحائط مبهوتاً من ذلك المنظر الفتان ، فوقع من لبها موقع الاعجاب والاستحسان ، وابتسمت ابتسامة تشف عن ذلك الاعجاب ، ثم مضت فى طريقها .

اما ارمانيوس فانه ما كادت تلك الغادة الحسناء تغيب عن ناظريه ، حتى بدأ الاصفرار يبدو على محياه ، وارتجفت ركبتاه ، واصبح فى حالة لا يستطيع معها الوقوف فشعر قيس بحالة صديقه فاسنده الى الحائط ، وشغله بالكلام الى ان استرد قواه ، وافاق من غشوته ، وعند افاقته سال قيساً بقوله .

الا تنبئنى ايها الصديق من هى هذه الفتاة ، ولمن هذا القصر المشيد ؟

فاجاب : لادرى — ولكن هلم بنا نسال الخدم.

فدنوا من بعض العبيد الذين كانوا وقوفا بالباب وسألاهم عن صاحب المنزل . فاجاب احدهم انه منزل الأمير زهير وهو من كبار امراء اليمن اتى مكة فاعجب بها ، فابتاع هذا المنزل واتخذه سكنا له ولوالده ولزوجه ولابنته سلمى وهى التى خرجت منذ هنيهة تريد زيارة الكعبه .

فقال. قيس: وهل الامير زهير يسكن مكة من زمن بعيد ؟

فاجاب العبد منذ اربع سنوات ، وانه ذو كلمة نافذة فى البلد ، وحائز للمحبة والاقبال من أهل مكة جميعا . وذلك لما انطوى عليه من الاخلاق الفاضلة الكريمة ، وخصوصا كرمه الحاتمى . فانه منذ اشترى هذا المنزل جعله كعبة القصاد ، وقلمايخلو من الاضياف والاغراب ؛ وأن كثيراً من الاعراب الذين ينزلون بمكة ولايتسنى لهم المبيت فى الفنادق يجدون فى هذه الدار من الراحة والهناء وحسن الوفادة وكرم الضيافة ما يجعلهم يظنون انهم فى نفس دورهم ، و يظهرلى انكما غريبان فتفضلا وانزلا فى ضيافة الامير على الرحب والسعة .

ولم يكد العبد ينتهى من كلامه حتى سمعا صرير ابواب تفتح ، وخرج عبد منادياً . الأمير.

فقال لهما العبد الذى كان يتحدث معهما . ها ان الامير خارج ؛ فانتظراه وسلما عليه .

بعد أن نادى العبد بخروج مولاه تأدب الحضور وخرج الامير زهير ، وهو طويل القامة اسمر الوجه ، ذو سبال وعثنون عليه اذار من الديباج المزركش يغطى اثوابه و يديه وينسحب وراءه فمشى نحو الباب الخارجى والخدم وقوف آخذة بازمة افراسه المعقودة الاذناب، عليها القلائد من الذهب والفضة .

وطفق ماشياحتى كان على مقربة من ارمانيوس ، وعندما دنامنه تفرس فيه فعلم انه ورفيقه غريبان ، فالقى عليهما التحية فاجاباه باحسن منها . فى تلو ذلك نادى احد عبيده وأمره قائلا . ليكن منك اعتناء بهذين الضيفين الكريمين . فظاهر

من سيمائهما انهما من ذوى النجابة والنبالة . وانزلهما المنزل الحسن ، ليكونا فى ارتياح وهناء .

فاجاب العبد بالطاعة » والامتثال، وركب الامير جواده وسار فى طريقه . اما الخادم فانه التفت نحو قيس وارمانيوس قائلا لهما. اتبعانى .فتبعاه الى ان دخل بهما دار الضيافة وهى بجوار منزل الامير وهى دار فسيحة تحوى غرف الطعام والنوم ، والجلوس ، تزدان بافخر الوان الاثاث والرياش ، الى غرف اخرى للخدم والعبيد . فادخلهما العبد الى قاعة الاستقبال. فجلسا . وبعد لحظة اتاهما بالقهوة قائلا.

ايها الوافدان الكريمان انكما الآن فى ضيافة الأمير فقرا عينا ، وطيبا نفسا فلم يرق ذلك الأمر قيسا ، ولكن ارمانيوس انشرح صدره عند سماعه ذلك اذ علل النفس بأنه سيلتقى مرة اخري بالاميرة سلمى التى شغلت لبه ، وسبت حجاه من اول نظرة . قائلا فى نفسه سوف امتع ناظرى بذياك الجمال الساحر

وبعد ان شربا القهوة خرج الخادم فبقيا لوحدهما قال ارمانيوس لقيس انى التمس منك ان تذهب الى الفندق فتنبىء اصحابنا عن وجودنا فى ضيافة لأمير ، وتشترى لهم لوازمهم من طعام ، وشراب . وتستفسر لنا عن صحة الشيخ الربيع عسانا نقضى مهمتنا ونعود بسلام الى بلادنا . وانى منتظرك هنا حيث ارتاحت نفسى لهذا المنزل ، وانها لتود ألا تفارقه .

فقال قيس : سوف اجتهد فى تنفيذ ما أمرت . ولكن ارجو منك ان لا تتمادى فى مشايعة العواطف ، وان تفكر بأننا غرباء فى هذه الديار ، ولنا فى بلادنا اهل وخلان يرصدون رجوعنا من آن الى آن ، وايضا لا تنس الامبراطور الذى ندبك لهذه المهمة التى اهمته ، وشغلت باله ، ضف الى ذلك ان حالة العرب على وجه العموم بخلاف حالاتكم فى الظروف التى أنت بها ، فاجهد نفسك ياصديقى ان لا تقع فى هذه الورطة ، وبعبارة اصرح فى ورطة الغرام ، والعشق والهيام لأن

وراء ذلك من المصاعب والمتاعب مالايقدر الوصف على تصويره .
ثم خرج وسار الى الفندق فانبأ الخدم بما كان واشترى لهم مايلزمهم من طعام وسار الى منزل (الربيع) فسأل عنه . فقيل له انه لم يزل مريضا ، فرجع ادراجه الى منزل الأمير زهير .
وكان الأمير وابنته لم يزالا غائبين عن المنزل فجلس يتحدث مع ارمانيوس عن الأمير وابنته ، فكان كلما جاء ذكر سلمى تغير وجه ارمانيوس ، ونطق لسانه بأطرائها ببليغ الوصف ، ذلك الاطراء الذى من شأنه أن يصدء عن العشاق ، وأهل الوجد والهيام ، الذين احترقوا بنار العشق ، ولواعج الغرام .
وفيما هما يتحادثان عن الامير وابنته اذ سمعا حركة غير عادية آتية من جهة فناء المنزل فخرجا ليريا ما وقع ، فعلما أن الاميرة سلمى عادت الى المنزل ، وان الامير سيعود قريبا فخفق قلب ارمانيوس عند سماعه ذكر الاميرة ، ولم يلبثا أن رجعا الى قاعة الضيافة
وبعد ساعة من الزمن اقبل أحد العبيد منبئاً لهما بقدوم الامير ، فأخذا يستعدان للقائه . وبعد هنيهة دخل عليهما الامير والقى التحية ورحب بهما ، ثم تبوأ مكانه من القاعة ، وكان قد دخل معه بعض صحبه فجلسوا جانبه يتجاذبون اطراف الحديث عن (محمد) ودعوته والاشاعات الرائجة فى اسواق مكة عن قرب مهاجمته لها ، وفيما هم فى ذلك اذ دخل احد الخدم ودعاهم للطعام ، فقام الامير واخذ بيد ارمانيوس ، وتبعهما قيس وبقية الصحب ، ودخلوا غرفة الطعام فاكلوا وشربوا مالذ وطاب ثم قفلوا راجعين الى قاعة الجلوس فجاءهم بعض الخدم بالقهوة وبعد شربها اخذوا يتناوبون السمر والمؤآنسة وطفقوا كذلك ساعة من الزمن قام بعدها الامير ، وكان قد جال بخاطره ان يسأل ارمانيوس وقيس عن حسبهما والى اى القبائل ينتميان ولكنه ارجأ ذلك الى مابعد ايام

الضيافة الثلاثة . فدخل الى دائرة الحرم وذهب اصحابه الى منازلهم .

وبقى ارمانيوس وقيس جالسين الى ان جاء خادم وطلب منهما ان يتبعاه الى قاعة النوم فتبعاه و لما دخلاها ارشد كل منهما الى فراشه ، فاضجعا ونام قيس نوم الراحة والهدوء ، وبقى ارمانيوس فى فراشه يقظا مفكراً بسلمى ابنة الامير وبالمهمة التى ارسله لانجازها مولاه القيصر فتراكمت عليه الهواجس واطارت نومه بحيث لم يغمض له جفن حتى الصباح .

وحين انفلق الصبح انتبه قيس من رقاده وحيا ارمانيوس فرد عليه وفى تلك اللحظة دخل خادم وقدم لهما القهوة والافطار فتناولاهما ، ثم خرجا إلى قاعة الاستقبال ، فاستاذن قيس ارمانيوس فى المسير الى الفندق ثم للاستفسار عن صحة الربيع ، فاذن له ومضى فى سبيله

ولبس ارمانيوس جالسا الى ان اعلن الخدم قدوم الأمير ، واقبل الأمير فدخل على ارمانيوس وحياه تحية الأصباح وسأله عن راحته فى تلك الليلة ، فشكر له مالقيه من العناية ، والعطف ودعا له بدوام العز . ولبث معه يتحادث مليا من الزمن وسأله عن رفيقه قيس فاجابه انه ذهب فى قضاء بعض المهمات وعما قليل يعود . ثم هم الامير بالانصراف بعد ان أوصى الخدم بارمانيوس خيراً وذهب فى سبيله .

بماذا تفكر الاميرة سلمى .

قضت الاميرة سلمى ليلتها دون ان يغمض لها جفن وهى تفكر بارمانيوس وتسائل نفسها عنه قائله ياترى . من هذا والى أى القبائل ينتسب . وماذا يكون غرضه من المجىء الى مكة . وهو فى هذا الشكل لايشبه الاعراب ؟ .

وعند ما أشرق الصباح وانفلق الاصباح نادت خادمها الخاص وسألته

عن الضيفين النازلين بالقصر امس . هل هما باقيان ؟

فاجاب بالايجاب . فامرته ان يذهب فيوصى الخدم بهما و يرجع مسرعا ولما عاد اليها بعد تنفيذ أمرها قالت له .

اذهب الى العربى الابيض اللون ، الاشقر الشعر ، وقل له ان الاميرة تريد أن تراك بعد رجوعها من زيارة الكعبة على حدة . ثم قامت فخرجت لزيارة الكعبة .

فذهب الخادم الى ارمانيوس واطلعه على رغبة سيدته فى مقابلتها له بعد الظهر ، وطلب منه عدم مبارحة المنزل

فامتلأ ارمانيوس جذلا وسرورا عظيما ولقد تلقى النبا بمزيد المسرة والارتياح حتى قام من فوره فذهب الى الفندق وسلم على خدمه وسالهم عن رأحتهم ثم بدل ثيابه بثياب جديدة وتعطر باجود الطيب ورجع الى القصر وقلبه يخفق ولبث يعد الدقائق والثوانى الى ان دنى وقت الغذاء

وبينما هو جالس غريقا فى الفكر والارتقاب إذجاء قيس واعلمه ان الربيع الذى هو ضالتهم المنشودة لم يزل مريضا ، وجلسا يتحادثان فاطلعه ارمانيوس على خبر تلك المفاجاءة الغريبة و كيف ان الاميرة طلبت مقابلته بعد الانتهاء من طعام الغذاء فبهت قيس وخشى عاقبة الأمر ولفت نظر صديقه قائلا أيها الصديق لا أريد ان اثنى عزمك عن مقابلتها ؛ ولكن ارجو أن لاتبدر منك بادرة فتكون السبب فى القضاء على حياتنا

فاجابه ارمانيوس بقوله :

لاتخف ايها الصديق فانى عليم بآداب مجاملة الملوك . وانى لحريص على شرفى وشرف مليكى وعلى انجاز المهمة التى ارسلت من اجلها وثق اننى لست من اولئك

الرجال الذين يبيعون الشرف والوطن بمجرد هوى يضطرب له القلب فاطمأن قيس على صاحبه وما كادا ينتهيان من حديثهما حتى دعاهما الخدم الى تناول الطعام فقاما ودخلا القاعة فوجدا الامير وجمعا من أصحابه وحينما وقع نظر الامير عليهما رحب بهما واجلس ارمانيوس الى جانبه وشرعوا فى تناول الطعام .

وفى خلال ذلك كان لاحديث للقوم الا (محمد) وقرب هجومه على مكة واعتزامه ابطال عبادة الاوثان وتحطيمهم . اما ارمانيوس فانه كان يفكر في مقابلة الاميرة سلمى وماعسى تنتجه هذه المقابلة من النتائج ، وكان يتظاهر بتناول الطعام وفى الحقيقة لم يكن يأكل الا قليلا وهكذا لبثوا الى ان انتهى القوم وطويت الموائد ودخل الامير دائرة الحرم ومضى كل من الحاضرين فى سبيله .

ثم قام ارمانيوس وقيس وعادا الى غرفتهما ، وبينما هما جالسان اذ جاء خادم الاميرة واشار الى ارمانيوس ان يتبعه الى الحديقة ، فقام ارمانيوس وتبعه وسارا الى ان وصلا الى حديقة القصر الداخلية ، وهناك فى وسط الحديقة صنعت قبة من سعف النخيل تحتها مقعد كبير يسع نحو ثمانية من الاشخاص فاجلس الخادم ارمانيوس على المقعد وذهب فانبأ الاميرة بقدومه .

أرمانيوس وسلمى

لم يكن الانتظار على أرمانيوس طويلا، ولم تك الا هنيهة من الزمن حتى اقبلت الأميرة مع خادمها، وعند وصولها القت التحية على ارمانيوس قائلة :

مرحبا بك ايها الشاب، من تكون، وما نسبتك، وما اسمك ؟

فارتبك ارمانيوس عند ذلك وأخذ يفكر فيما يجيب به، ونظر الى العبد الواقف بجانبه وسرعان ماقال لها إنني من بني غسان .

فاستغربت الاميرة نغمة صوته والتفتت نحو العبد مشيرة له بالابتعاد، فابتعد ثم قالت مخاطبة أرمانيوس : أيها الفارس، انك لست بغساني فقال عراقي، فقالت ولست كذلك . فارتبك في امره وأخذ يفكر، وفيما هو جائل الفكر دنت منه ووضعت يدها على كتفه قائلة .

اسمع ايها الشاب انى أجد فى جوابك ارتباكا، وشاهد ذلك مايبدو على محياك من التغير والانفعال، فاصدقنى المقال؛ وأعلمنى بحقيقته . واقسم لك بشرف والدى الأمير، وذمة العرب أننى أكتم أمرك وأحفظ وأصون سرك، فثق بصدقى وأمانتى وقل لى من انت، وماهى مهمتك ولماذا قدمت إلى مكة لعلى أساعدك وأشاركك فى قضائها وأنجازها .

فاطرق أرمانيوس قليلا ثم رفع رأسه شامخ الأنف وقال لها .

إذا كان لابد من معرفتى فانى لاأخشى وقع السيوف بعد أن اسرتنى عيناك ولا أهاب الموت بعد أن افتتنت بهواك فاعلمى : ايتها الاميرة الكريمة إننى لست بغسانى، ولا عراقى، بل ولا عربى وانى امرؤ رومى أدعى أرمانيوس احد قواد جيوش الامبراطور هرقل، وقد ندبنى الامبراطور لمهمة لا يسلب بها عرضاً، ولا يخدش فى سبيلها شرفاً، وهى أن أقوم بهذه الرحلة لاستقصى الأخبار الحقيقية عن (محمد) ودعواه وغرضه وحسبه

ونسبه ، فقبلت تلك المهمة واستعنت على انجازها باعرابى عرفته من قديم الأيام يدعى قيس وهو الذى رأيتيه معى وسرنا حتى قدمنا هذه الديار ، واستفهمنا عن العارفين بالأمور والأحوال ماضيها وحاضرها ، فانبئنا أناس بشيخ وقور يدعى الربيع ، كان ملازم الكعبة ليل نهار ، ولما ذهبنا اليه وجدنا مريضا فساقتنا الاقدار إلى رؤية محياك البهى ، وعلق قلبى ببهائك السنى لذا رضينا من أجل ذلك ضيافة الامير والدك ، ونحن لم نزل على مضض الانتظار لابلال الربيع لنستعلم منه عن الحقيقة ، فهذه هى حقيقة الحال قصصتها عليك فافعلى بعد ذلك ما بدالك واصنعى ماشئت .

فلما سمعت الاميرة كلامه ابتسمت وقالت .

ثق أيها الفارس الهمام انك وجدت أنشودتك ، وقد لقيت أهلا ووطأت سهلا ، وإنك لنائل بغيتك على يدى ، فان لى جداً قد أناف على التسعين من العمر لا يخرج من غرفته ، عالم بأحوال العرب عموما ، وكثيراً ما كان يحدثنى عن محمد ، وأن له الدراية الكافية الوافية . فان شئت قدمتك له وعرفتك به ، وإنه لحرى بان يقضى لك مهمتك .

فخر أرمانيوس ساجداً لديها وقال :

لك الشكر أيتها الاميرة على ذلك ، وثقى أنى عبدلك وخادم من خدامك إن قبلت ذلك .

فانحنت الأميرة ورفعته عن الأرض وقالت : تفضل وعد الآن إلى محل راحتك وسأجمعك بجدى فى صبيحة الغد إن شاء الله وودعته ومضت فى سبيلها وقلبها مترع بحبه وقضاء حاجته ، وفوق ذلك صارت تعلل النفس بالاقتران به بعد أن سمعت منه شكوى الحب والهيام بها .

اما ارمانيوس فانه غدا مندهشاً ذاهلا من عظيم الفرح والابتهاج بما ظفر بلقاء من أحب وبما صار ملؤه الرجاء فى قضاء مهمته على يديها ، وبقى صامتاً ساكتاً الى أن فارقته الأميرة وغابت عن نظره .

فذهب تواً من فوره الى صديقه قيس لينباه عن تلك المقابلة وما لاقى من الاميرة من الحفاوة وتقديم مساعدتها له ولم يكد يصل الى القاعة التى بها قيس حتى ناداه صديقي ، قيس ، لقد قضيت حاجتنا على يد الاميرة سلمى ولم يعد لنا حاجة للاجتماع بالشيخ الربيع .

فهدأ قيس من حركته قائلا : قل لى أيها الصديق نبأ تلك المقابلة تفصيلا وماذا كانت نتائجها .

فقص عليه ارمانيوس جميع ما وقع له مع الاميرة ، وكيف وعدته بان تقدمه الى جدها فى صباح اليوم التالى .

فسر قيس لذلك سرورا عظيما وقال لقد اراد الله سبحانه أن يوفقنا لتنفيذ مهمتك . وقضيا نهارهم وليلتهم فى سرور وسمر مع الامير واصحابه .

اما سلمى فانها بعد أن عادت من زيارة الكعبة الى المنزل دخلت الى غرفة جدها فوجدته منتبها وكان شيخاً وقوراً تجاوز التسعين من العمر وقد اجمع رأيه وعزمه على أن لا يخرج من منزله ، فقبلت سلمى يده ، وقبلها هو من جبينها وكان يحبها حبا يقرب من العبادة ، لانها كانت الوحيدة لوالديها ، وبعد أن جلست بجانبه سألته بكل رقة واحترام . اتحبنى ياجدى ؟

فاجابها : هل عندك شك فى ذلك ، انت وحيدتى ، وانت سلوتى بل تعزيتى الوحيدة فى هذه الشيخوخة .

فتنهدت الاميرة تنهدا عميقا لفتت به نظر جدها نحوها ، فسألها بلهفة الرقة والعطف مالك ياسلمى ؟ قالت لاشىء يا جدى .

فقال لا : ان هناك امرا تكتمينه عني يجب ان اعرفه ، بل يجب ان تكاشفيني به دون كتمان ، تكلمى ياعزيزتى ولا تخشى شيئا .

فقالت : هبط دارنا منذ يومين ضيفان مجهولان النسب ، يبدو من ملامح احدهما انه عربى صميم ، والثانى منهما ابيض اللون مائلا الى الحمره ، ازرق العينين ، اشقر الشعر ، طويل القامة لا يشبه فى السحنة والخلقة العرب ، فاستغربت

أمرهما وملت الى معرفة حسبهما فقابلت فى ظهيرة هذا النهار الرجل الثانى الذى لايشابه العرب، ثم طفقت تقص على جدها مادار بينها وبين ارمانيوس من الحديث، الى ان قالت ووعدته بان اقدمه لك فى صبيحة الغد كى تقضى له حاجته، اذ يبدو من محياه ويظهر على سيماه علائم النبل، ودلائل الشرف وعلى ماأظن انه صادق فى اقواله.

ففكر الشيخ قليلا ثم رفع رأسه قائلا: لاباس ياعزيزتى من مقابلتنا معه ولابد أن نحدثه بما نعلمه عن محمد أملا فى منفعة بنى الانسان، ورغبة فى ارضائك واجابة لطلبك.

فانحنت سلمى على يد جدها وقبلتها، ثم عانقته بابتهاج لم يعهده فيها من قبل علم منه انها وقعت فى محبة ذلك الرجل الغريب، ولما كان جدها فى سن التجارب والمعرفة باحوال العشق والغرام، وغير متعصب لحالات العرب الجاهلية لم يظهر لها اسفاً بل قبلها ودعا لها بالخير والتوفيق.

فعادت الى غرفتها وهى ترصد بزوغ الفجر بفارغ الصبر.

وفى الصباح نهضت واستدعت خادمها، ولما مثل بين يديها امرته بان يذهب الى غرفة الاضياف ويدعو أرمانيوس اليها، فذهب الخادم الى ارمانيوس فوجده منتبها يتناول القهوة، وكان فى تلك الليلة لم يغمض له جفن فعند ما رأى خادم الاميره وسمع نداءه اياه ترك القهوة ونهض من فوره فاشار اليه العبد ان يتبعه فتبعه.

أما قيس فانه بعد ذهاب ارمانيوس خرج فى طريقه الى الفندق لتفقد حال الجنديان وشراء مايلزم لهم.

عند جد سلمى

دنى أرمانيوس والخادم معه من باب الحريم فاشار اليه الخادم بالانتظار ريثما يعلم سيدته بقدومه، ودخل فاعلمها فأمرته بالاتيان به، فخرج اليه وأشار له بالدخول.

دخل أرمانيوس المنزل وراء الخادم حتى انتهى إلى قاعة واسعة شاسعة الاطراف والاكناف مفروشة بأفخر الرياش فدخل اليها — فوجد الأميرة متبوأة صدرها ـ فتقدم اليها منحنى الرأس إجلالا واحتشاماً حتى وصل اليها، فقبل الأرض بين يديها، فقامت من فورها ورفعته وحيته ثم أشارت اليه بان يتبعها فتبعها ودخلت به من باب داخلى حتى انتهيا إلى غرفة صغيرة قليلة الرياش والأثاث، خالية من مستلزمات البذخ والترف، فدخلت ودخل في أثرها، فوجد بها شيخاً وقوراً جلل شعره المشيب، لكنه ذو عينين يتطاير منهما نار الذكاء، فسار حتى دنى منه؛ وقبل يديه، فرحب الشيخ به وأجلسه بجانبه أما سلمى فانها قبلت يد جدها وجلست بالجانب الآخر أما الخادم فانه خرج فى سبيله وبعد أن اطمأن بهم المجلس خاطب الشيخ أرمانيوس قائلا: اصدقنى الحديث يابنى وقل لى من أنت وما أسمك وإلى أى القبائل تنتمى وماحدابك للوفود على مكة فى هذه الأيام العصيبة؟

فأجابه أرمانيوس بما أجاب به الأميرة سلمى، وقص عليه قصته وسبب مجيئه الى مكة وزاد على ذلك بقوله هذه هى الحقيقة قصصتها على مسامعكم لعلكم تجدون لى من أمرى رشداً ومن حرجى فرجا.

فاجابه الشيخ: طب نفسا يابنى، وقر عينا فانى لمحدثك عن (محمد) منذ ولادته إلى يوم هجرته بكل صدق دون تحيز له أو تحمل عليه فاطمأن جالساً بجانبي واصغ الى قولى وان شئت دون ما أحدثك به فى القرطاس.

وانت أى بنيتى فاذهبى الى والدك واطلعيه على جليه الخبر لئلا يشتغل باله بك وعودى الينا فأننى لا ابدأ بالحديث الا بعد عودتك

فذهبت سلمى الى الامير والدها واطلعته على جلية الخبر وافهمته انها موجودة عند جدها وعادت فتبوأت مقعداً بجانبه واخذت تصغى مع ارمانيوس لما يفضى به اليهما ذلك الشيخ الجليل الذى بدأ حديثه بقوله

قريش وكيف وصلت الى حكم مكة

أعلم يابنى انى رغبة فى اجابة حفيدتى سأبدأ بك الحديث فى الموضوع وما يقتضيه من مقدمات وهو وان يكن مطولا قليلا الا انكما ستشعران بمتعته وفائدته وهو أن قريشا الذى شاع صيتها وذاع ، والتى انجبت محمداً هم ذرية النضر بن كنانة بن فهر بن مالك بن النضر . والنضر هو الذى يسمى قريشا . قيل وسمى بذلك للتقرش اى الانجار . وقيل تصغير قرش . وقرش اسم للحوت الكبير المفترس من دواب البحر

واعلم اى بنى انه يستفاد من تواتر الاخبار وممن يعول عليهم فى صدق الرواية والانباء الصحيحة ان الحجاز واكناف جزيرة العرب كانت من قديم الازمان ديار العمالقة من ولد عمليق بن لاوذ وكان لهم ملك هناك . وكانت جرهم من سكان تلك البقعة ايضاً من ولد يقطان بن شالح بن ارفخشد. وكانت ديارهم وسكناهم فى ديار اليمن مع اخوانهم حضرموت . فاصاب اليمن يومئذ قحط فنزحوا الى تهامة يلتمسون الماء والكلاء فعثروا فى طريقهم باسماعيل مع امه هاجر عند زمزم ونزلوا على قبيلة قطورا من بقية العمالقة ورئيسها يومئذ السميدع بن هو ابن ثرثباء بن لاوى بن قطورا بن ذكر بن عملاق أو عمليق .

فاتصل خبرهم بمن ورائهم من قومهم باليمن ، وما اصابوا من النجعة بالحجاز فلحقوا بهم وعليهم مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هنى بن نبت بن جرهم فنزلوا مكة .

كانت قبيلة قطورا تسكن جنوبى مكة ، وكان مضاض يعشر من دخل مكة من شمالها والسميدع من جنوبها .

ولقد نشأ اسماعيل بين جرهم وتكلم لغتهم وتزوج منهم حرا بنت سعد بن عوف

ان هنى بن نبت بن جرهم ؛ وهى المرأة التى أمره أبوه ابراهيم بطلاقها لما زاره ووجده غائباً فقال لها قولى لزوجك فليغير عتبته ، فعندما عاد اسماعيل ابلغته قول الزائر فطلقها وتزوج ببنت اخيها مامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف ، ثم تزوج السيدة بنت الحرث بن مضاض بن عمر بن جرهم .

وحينما بلغ اسماعيل الثلاثين من العمر قدم أبوه الحجاز وأمر ببناء الكعبة البيت الحرام ، وكانت الحجرة زرباً لغنم اسماعيل ، فرفع قواعدها مع ابنه اسماعيل وحولها خلوة للعبادة ، وجعلها حج للناس كما امره الله ثم انصرف الى الشام فقبض هناك .

وبعث الله سبحانه وتعالى اسماعيل الى العمالقة ، وجرهم ، وأهل اليمن فآمن بعض وكفر بعض ولم يزل على تبليغ الرسالة وأداء الامانة حتى توفاه الله ودفن بالحجر مع امه هاجر ، وعهد بامره الى ابنه (فيزار) اى صاحب الأبل لانه كان صاحب ابل ابيه وفى رواية أخرى ان اسماعيل عهد بامره لابنه نابت فقام ابنه بامر البيت ، وبعد أن توفى نابت بن اسماعيل ، ولى أمر البيت الحرث ابن مضاض ، وقد روى ايضا انه وليه مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب ابن نبت بن جرهم .

ثم اخذت الولاية من ابناء اسماعيل وجعلت فى أخوالهم من جرهم ، فصاروا ولاة البيت لاينازعهم ابناء اسماعيل اعظاما للحرم ان يكون فيه بغى اوقتال . ولكن جرهم بغت فى البيت ووافق بغيها تفرق سبا ، ونزول بنو حارثة بن ثعلبة ابن عمر بن عامر ارض مكة ، فارادوا الاقامة مع جرهم فمنعوهم ، فاقتتلوا فغلبهم بنو حارثة وهم على مارواه الرواة ، خزاعة وملكوا البيت عليهم ، وكان رئيسهم يومئذ عمر بن طى فشرد بقية جرهم ، وهذا بحث طويل الشرح فلا اريد التطويل عليكم ، فحباً فى الأيجاز اقول بالاختصار .

ان ولاية هذا البيت الذى بناه ابراهيم وابنه اسماعيل كانت تارة فى قريش واخرى في سواهم الى ان اغتصبها منذ قرنين او اكثر خزاعة، وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانيين، اذ لا يخفى ان العرب كافة يرجعون فى انسابهم الى اصلين، أحدهما اسماعيل الذى قدمت لكم ذكره ومنه قبيلة قريش وسائر قبائل الحجاز، والأصل الآخر قحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن، ولم تستطع خزاعة الاستبداد بولاية البيت اى الكعبة الا بعد أن كان ما كان من تفرق قريش وضعف أمرهم لذا لبثت خزاعة صاحبة الامر والنهى الى أن ظهر (قصى) فبذل المال والدم حتى غلب خزاعة واسترجع ولاية البيت الى قريش وتولى هو كل وظائف الكعبة وهى.

الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء.

فلم يفقه ارمانيوس معنى هذه الالفاظ، وقاطع الشيخ سائلا عن مدلولها.

فاجابه: اعلم أى بنى أن مكة لا حكومة فيها مستقلة كحكومة قيصركم، بل هى محل عبادة لأن الكعبة حج يزوره الناس كما يزور النصارى بيت المقدس. بيد انها أعظم من ذلك خطرا فمن تولى أعمالها كانت اليه حكومة مكة وولاية أمرها على نسبة ما يتولى من تلك الاعمال.

فمن تولى (الحجابة) كانت بيده مفاتيح الكعبة، يفتحها لمن اراد، ويمنعها ممن اراد

واما (السقاية) فهى أن تكون البئر العتيقة التى بجانب الكعبة والتى تدعى زمزم فى عهدة المتولى أمرها ليسقى الحجاج منها.

وأما (الرفادة) فهى أن يتولى اناس ضيافة الحجاج الزائرين للكعبة وتجهيز طعام لهم، ولهم فى نظير ذلك مال تدفعه قريش اليهم، لأن اولئك الزوار ضيوف عليهم.

وأما (اللواء) فهو العلم الذى يعقدونه للحرب، فصاحب اللواء يعقد الألوية للجند الذاهبين الى القتال، وهو بمنزلة قائد الجيش عندكم.

وأما (الندوة) فهى مجلس القضاء ولها بيت فى الكعبة تجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة، وصاحب هذه الدار هو صاحب الشورى والرأى واليه يرجع الامر .

ولمن يتولى، هذه المناصب الخمسة سياسة الدنيا والدين فيكون القضاء، والجند والكعبة ، والمال، والماء ، فى قبضته، وقد حاز قصى شرف مكة كله ؛ وقطع مكة اربعا بين قومه وبه اجتمعت قبيلة قريش وعادت اليها سطوتها وعلا نجم سعدها فتيمنت به، واذعنت لأمره، حتى صارت لاتزوج امرأة لرجل من قريش الا فى داره ولا يتشاورون فى أمر نزل بهم او يعقدون لواء حرب الا فى داره يعقدها اولاده وجملة القول أن أمر قصى فى قومه كان كالدين المتبع لا يعمل بغيره. وكان لقصى اربعة اولاد ، وهم عبد الدار ، وعبد مناف، وعبد العزى وعبد قصى .

فلما شاخ قصى كان عبد مناف قد شرف فى عهد أبيه وعظم شأنه ، وفخم أمره وكذلك عبد العزى وعبد قصى فاراد قصى أن يشرف عبد الدار وكان بكره فدعاه اليه وأوصى له بمناصب الكعبة المتقدمة الذكر فصار شرف مكة كله الى عبد الدار وبنيه من بعده .

وخلف عبد الدار أولادا وخلف عبد مناف أولادا آخرين وهم عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، وكانوا رجالا أشداء فحسد بنو عبد مناف بنى عمهم عبد الدار على ما فى أيديهم من أمر الكعبة ونازعوهم عليه حتى كاد يفضى أمرهم الى الحرب ثم تداعوا للصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم فاعطيت السقاية والرفادة لبنى عبد مناف واعطيت الحجابة واللواء والندوة إلى بنى عبد الدار وتم الصلح على ذلك وانحسم الخلاف .

فقام بامر بنى عبد مناف هاشم ليساره وقراره بمكة ولتغيب أخيه عبد شمس فى التجارة بالشام ولكثرة اسفاره فلما تولى هاشم الأمر فيما عهد

اليه فيه احسن ماشاء فى اطعام الحجاج واكرام وفادتهم ، ولما توفى هاشم قام بالامر بعده اخوه المطلب وكان ذا شرف وفضل فكانت قريش تسميه الفضل لسماحته .

وكان هاشم قبل وفاته قد شخص الى يثرب وتزوج من بنى عدي وولد له ولداً سمته امه شيبة فتركه هاشم عندها بحيث كان غلاما وبعد وفاة هاشم مضى اخوه المطلب الى يثرب وتسلم الغلام ورجع به الى مكة وفى حين دخوله اليها كان مردفه على بعيره فقالت قريش هذا عبد ابتاعه المطلب فسمى شيبة عبد المطلب من يومئذ .

ثم مات المطلب فقام بأمر بنى هاشم بعده عبد المطلب بن هاشم وأقام الرفادة والسقاية للحجاج على أحسن مما كان يقيمه من قبله وكان له وفادة على ملوك اليمن وحمير ، واراد عبد المطلب حفر بئر زمزم لرؤية رآها فاعترضته قريش على ذلك وحالت بينه وبين امنيته ولاقى منها صعاباً ولكنه فاز اخيرا بحفرها .

وكان قد نذر اذا ولد له عشرة اولاد أشداء لينحرن احدهم عند الكعبة قرباناً لله . فلما ان كملوا عشرة جاء الكعبة ليفي بنذره ولم يكن يدرى من ينحر من اولاده فاستخار هبل وهو الصنم الاكبر القائم فى الكعبة بواسطة القداح فقاطعه ارمانيوس بقوله مامعنى القداح . ؟

فاجابه : أن فى الكعبة اصناما كثيرة اتخذناها نحن العرب وسيلة بيننا وبين من نعبد واعظمها صنم يدعى هبل عنده سبعة قداح أي اسهم بلا ريش كتب على كل قدح مايدل على معنى فقدح كتب عليه (العقل) وآخر (نعم) وثالث (لا) فاذا اردنا امرضربنا به فى القداح فاذا خرج نعم فعلنا ماجئنا من اجله او (لا) لم نفعل وقدح مكتوب عليه (منكم) وقدح عليه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم)

وقدح فيه المياه فاذا أردنا مثلا ان نحفر بئر للماء ضربنا القداح وفيها ذلك القدح فما خرج عملنا به .
ولما جاء عبد المطلب الى هبل قال لصاحب القداح اضرب على بنى هؤلاء بهذه القداح وانباءه بنذرة فاصطنع لاولاده عشرة اقداح وضرب عليهم بها فخرجت على ابنه عبدالله والد (محمد) : فهم عبدالمطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلك وقالت لا بل يجب ان نعذر فيه اى نفديه فانطلقوا الى عرافة فى المدينة يثرب فوجدوها بخيبر فجاؤا دارها وسالوها عذرا بنذر عبد المطلب فسالتهم كم دية الرجل عندكم فقالوا عشرة من الابل فقالت خذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليها بالقداح فاذا خرجت عليه فزيدوا من الأبل عشرة ، ولا تزالوا تفعلون حتى يرضى آلهكم وتخرج القداح على الأبل فتنحروها ، فخرجوا وفعلوا وفق ما قالت وضربوا بالقداح فما زالت تخرج على عبد الله حتى بلغت الأبل مائة فخرجت عليها فذبحوها ، ونجا عبد الله . وهذا معنى مايقوله (محمد) اليوم . أنا ابن الذبيحين . يعنى بذلك عبد الله أباه واسماعيل جده فانهما اللذان قدما للذبح ثم فديا بانعام ذبحت .
ثم أن عبد المطلب زوج ابنه عبد الله بآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فدخل بها فحملت منه بمحمد ، بيد انه لم يمكث مع امرأته الا مدة يسيرة حتى حكمت عليه الاحوال بالسفر الى غزة فسافره الا أنه مرض فى سفره هذا فعادوا به الى مكة فمات قبل أن يدركها وهو على مقربة من يثرب فدفن هناك ولم تره امرأته .
وأقام عبد المطلب فى رئاسة قريش مدة طويلة وهو الذى استخرج حينما كان يحفر بئر زمزم تمثال غزالتين من ذهب وأسيافا كان ساسان ملك الفرس أهداها للكعبة وقد قيل سابور ، ودفنها الحارث بن مضاض حينما خرج بجرهم من مكة .

فاستخرجها عبد المطلب وضرب الغزالتين حلية للكعبة . فهو أول من حلى الكعبة بالذهب وضرب من تلك الأسياف باباً حديدياً جعله لها ، ثم اتخذ حوضاً لزمزم يُسقى منه الناس ، فحسده قومه على ذلك وظلوا يأتون ليلا فيهدمون ما بناه فغمه ذلك أكبر الغم ، ولبث مغتما إلى أن رأى فى الليل هاتفًا يقول (قل لا أحلها لمغتسل ، وهى لشارب حل وبل) فاذا قلتها فقد كفيتهم وقل (اذا أرادها أحد بمكروه رمت يداه في جسده) فقال ذلك ولما علم قومه بذلك تناهوا عنه .

فمن هذا يعلم لكما ياولدى عظمة قريش وما نحن معشر العرب عليه من تعظيم الكعبة وأصنامها فانها ضالتنا وغايتنا ، وملاذنا ومعاذنا نستشيرها ، ونستخيرها واليها نحج من سائر أقطار الأرض ولقريش منفعة كبرى مما يقدم على مكة بسببها من الناس .

ولقد ذكرت لكم كم سفك من الدماء فى سبيل استبقائها والاحتفاظ بها ، فهى مصدر نعمة قريش ومنبع أقواتهم ، ومبعث آمالهم ولقد مضت عليها القرون الطوال قائمة والناس يكرمونها ويعظمونها ويذبحون عند أصنامها الذبائح ، ويقدمون عليها بالهدايا الى يومنا هذا . ولكن محمداً قام فى هذا العهد من الزمان يدعو الناس الى هدم هذه الأصنام والأوثان ، والى هدم معتقدات الآباء والأجداد .

ولما بلغ الشيخ هذا المقام بدت عليه علائم التعب فقال : اذهبا ياولدى فاستريحا الآن وفى صبيحة غدٍ هلموا الىّ لأتمم لكما الحديث فقد أحسست الآن بالتعب وحق الىّ ان ألتمس الراحة .

حينئذ نهض أرمانيوس وسلمى وقبلا يد الشيخ وخرجا من باب الغرفة الى

الباب الخارجى فوجدا عبد سلمى واقفًا بالباب ، فحيت سلمى أرمانيوس تحية ملؤها الحنان والعطف ، وقالت : اذهب أيها الضيف العزيز واسترح الآن وموعدنا صبح الغد ان شاء الله .

فانحنى أرمانيوس على يد سلمى وقبلها قبلة حارة شعرت منها بارتجاف فى جثمانها ، فاسترجعت يدها منه بتلطف و رفق وأشارت الى الخادم أن أوصله الى الباب الخارجى المفضى الى جهة منزل الأضياف ، ثم مضت فى طريقها الى الحرم .

أما أرمانيوس فانه تبع الخادم الى أن خرج الى فناء الدار وأوصله الى غرفة الأضياف وهناك وجد صديقه قيس ينتظره على أحر من الجمر . فحين وصوله اعتنقه وسلم عليه وقال سائلا :

خيراً أيها الصديق . فقال أرمانيوس .

نعم ان لى حديثًا لذيذاً سأقصه عليك وقت القيلولة . وبعد برهة وجيزة دعاهما الخدم لتناول طعام الغداء مع الامير زهير فذهبا الى غرفة الطعام فوجدا الأمير زهيراً ، ولفيفًا من صحبه ينتظرون قدومهما . فلما دخلا ابتسم لهما الامير ودعا أرمانيوس الى جانبه وساله عن حالته وراحته فشكر له ما يلاقيه هو وصديقه قيس من العطف والاكرام ، وحسن الضيافة .

وبعد أن تناولوا من صنوف الاطعمة ما لذّ لهم وطاب ، قاموا الى غرفة الاستقبال وشربوا القهوة وأخذوا يتجاذبون أطراف الأحاديث ساعة من الزمن فى أثرها قام الامير ودخل دائرة الحرم وانصرف أصحابه وبقى أرمانيوس وقيس وحدهما .

وبعد انفرادهما أخذ أرمانيوس يقص على قيس الحديث الذى سمعه من

جد سلمى حرفيًا وأطلعه كيف دونه بمذكراته . فانشرح صدر قيس ، وزال مابه من غم وقال لارمانيوس .

شكرا لله الذى وفقك لنوال بغيتك ، واعلم أنه بعد أن ناداك خادم سلمى وذهبت معه انتظرت قليلاً فضاق صدرى من الوحدة فقمت من فورى أتجول فى أسواق المدينة فخطر لى خاطر فجائى وهو أن أذهب الى الفندق واحضر الجنديان والخيول والأمتعة الى هنا وفعلاً ذهبت الى الفندق واحضرتهما معى الى هنا .

فقال أرمانيوس . نعم ما فعلت : وأينهما الآن ؟

فاجاب : اننى تركتهما بالقاعة المجاورة لنا ، ولا اعلم هل قدم لهما الطعام ام لا فهلم بنا لنراهم .

فقاما وذهبا الى القاعة الثانية فوجداهما بها ، وعند دخولها قام الجنديان لرؤية سيدهما وقبلا الأرض بين يديه وسلما عليه باشتياق وحب لا مزيد عليه ، وبثا له اشتغال باليهما لامتداد أمر غيابه . فشكرهما على ذلك واثنى على شجاعتهما وحميتهما ومحبتهما له ثم سألهم هل احضر الخدم لهما الطعام .؟ فاجاباه بانهما أكلا وشربا القهوة وأن الخدم اعتنوا بهما كل الاعتناء وقدموا العلف للجياد .

فقال أرمانيوس لقيس : لاشك أن الامير زهير من بيت مجيد ، وانه على جانب عظيم من الكرم حتى انه يفكر فى اضيافه . ثم عاد ارمانيوس بصديقه الى عرفتهما ليأخذا حقوق الراحة .

أمّا الامير زهير فانه بعد دخوله دائرة الحرم استقبلته ابنته سلمى ، فسالها عن حالها وهل ابطأت عند جدها أم لا ؟ .

فقالت خرجت من عنده قبل الظهر بقليل ثم احكت له قصة أرمانيوس وأطلعته على حقيقته وشأنه ومن هو. وقالت انني كنت بصحبته عند جدي وكان يحدثنا بما يلتمس أرمانيوس الاطلاع عليه وما جاء من أجله،

فاستغرب الأمير ذلك وفكر قليلاً ثم قال: انني توسمت في وجه أرمانيوس العظمة والنبل، والشرف قبل هذا الوقت الذي عرفت فيه حقيقته، ووقفت على قصصه ونبئه، وكنت عازم على أن أسأله عن حسبه، ونسبه ولكنني ارجأت ذلك إلى انقضاء أمد الضيافة. والآن أشكر الله على ما وفقك لمعرفة الحقيقة واطلاعي عليها. ولست بعد ذلك مضطر إلى سؤاله واحراجه بذلك تجاه الأضياف، ويجب علينا بعد الآن أن نشدد الأوامر على الخدم بالاعتناء بضيفنا حتى انني سأدعوه في هذا المساء للركوب معي من أجل استنشاق الهواء خارج البلدة. ثم قبل ابنته ومضى إلى غرفته يلتمس الراحة.

وكذلك دخلت سلمى غرفتها وبعد أن خلعت ثيابها جعلت تفكر بأرمانيوس وجماله وكان قلبها خلال ذلك يخفق، وجثمانها يضطرب كلما تذكرت تلك القبلة الحارة التي طبع يدها بها. حيث عَلِمت منها أن أرمانيوس شغف بها كما انها أصبحت كذلك فتنبسط أسارير وجهها. ولكنها سرعان ما كانت تحس بانقباض في نفسها حينما يخطر ببالها تلك الصعوبة التي تعترضها في طريق الاقتران به.

وكيف لا يكون مصاعب وهي ابنة أمير كبير من أمراء العرب، فهناك فرق شاسع بينها وبين أرمانيوس وان يكن أرمانيوس من رجال البلاط الملكي. وفضلاً عن ذلك فثم فروق جنسية ودينية تضاف إلى ذلك البون البعيد وناهيك بما ينشأ من المتاعب إذا علم واتضح لأبيها أو لأي امرىء

ما من العرب انها تحبه وتهواه فهناك الطامة الكبرى . لأن من عادات العرب أن لا يصاهرون عشيقا ؛ ومن الشنار عندهم أن تتزوج الفتاة بمن يهواها وتهواه ، ولو كان من ذوى قرابتها ، وذلك الأمر من الصعوبة بحيث يفضى إلى أوخم العواقب كقتل أحد العشيقين . لذلك كانت سلمى مضطربة البال عظيمة البلبال تفكر لتجد من أمرها رشدا ومن ضيقها فرجا .

سلمى ومربيتها زينب

بينما سلمى غارقة فى الهواجس والافكار اذ دخلت عليها مربيتها زينب ، وبعد أن قبلت الارض بين يديها سألتها قائلة ، ما بالك يا سيدتى جالسة وحدك مستغرقة فى لجة التفكير والاهتمام . أليس فى وسعى أن أخفف عنك مايشغل بالك ويهدىء خاطرك وروعك ؟

فاجابتها سلمى : لاشىء يازينب إلا أننى أشعر بقليل من التعب .

قالت : ولكن يلوح لى من ملامح محياك ، وأسارير وجهك يا سيدتى انك تفكرين كثيراً بامر ذى بال .

فاجابتها نعم . إننى أفكر بامر غير أنه ليس بذى بال كما تزعمين .

فقالت زينب : كيف يخطىء ظنى ياسيدتى . وإننى منذ ثلاثة أيام ألحظ منك ذلك الحال الذى طرأ عليك حتى أن السيدة والدتك سألتنى ذات يوم بقولها : ماذا اعترى ابنتى فاجبتها أن لاشىء وأنه ربما شعرت بشىء من التعب .

فقالت سلمى : حسناً قلت يازينب . وصواباً نطقت

فاجابتها : ولكن ياسيدتى اريد أن تعلمينى الحقيقة لعلى أخفف عنك بعض الشىء . وثقي يامولاتى اننى أكتم أمرك وأحفظ فى صميم سويداء قلبى كل

ما تفشيه الى من سر . وأكون عوناً لك على وصولك إلى بغيتك . وانك لتعلمين مقدار حبي لك وإخلاصي .

فاعتدلت سلمى فى مجلسها وقالت : إننى لا أشك فى اخلاصك . فاغلقى الباب وادن منى يا زينب لأنص عليك قصتى لان قلبي وفؤادى كاد ينفطر حزنا وجوى .

فاغلقت زينب الباب ودنت من سيدتها وجلست بين يديها لتستمع وتصغى الى حديثها بكل اهتمام واعتناء .

فبدأت سلمى تحدثها قائلة : هل نظرتين الضيوف الذين نزلوا عندنا منذ أيام . ؟

فاجابتها : انى نظرتهم غير مرة .

قالت : وهل تعرفين الشاب الأبيض الوجه ، الذهبي الشعر . ؟

فاجابت : رأيته اليوم وهو خارج من جهة مقام جدك .

قالت حسناً : اعلمى يا زينب انى أحب ذلك الرجل حباً جماً أشغل بالى وتركنى افكر فيه ليلى ونهارى وذلك منذ هبط دارنا ووقع نظرى عليه لاول مرة . لذلك تريني أفكر بامره كثيرا وقد دعوته ذات يوم للمقابلة وسالته عن شانه وحالته وتحققت من شخصيته ثم قدمته الى جدى . وأيضا أنبات والدى بنبئه وطفقت تحدثها عن كل ما تعلم الى أن قالت وكنت أفكر حتى الساعة الاخيرة هل هو يحبنى أم لا . ؟ ولكننى تحققت من حبه لى فى هذا اليوم حيث لدى خروجنا من عند جدى طبع يدى بقبلة حارة استشعرت منها خفقان قلبه ، فازددت فيه رغبة ، وجعلت افكر فيه وأفكر فى العوائق التى ربما تحول دون اقتراننا اذ هو مسيحى الملة ، أجنبي الجنسية . ولا يخفاك أن والدى لو اطلع

على تعابنا لقتل أحدنا لا محالة ، فهذا سر ارتباكى يازينب ، ومختصر حديثى سردته عليك عسى أن ألقى منك عونا ومساعدة عند النوائب .

عندئذ فكرت زينب مليا ثم أجابتها قائلة .

نعم ياسيدتى ان الامر وان كان لا يخلو من المصاعب والعقبات الا أن الانسان لايعدم وسيله للوصول الى بغيته وطلبته . وانى منذ الآن سافكر فى أمرك آملة مساعدتك على وصولك الى راحتك . وسأقابل صاحبنا رجاء اقناعه بترك دينه وبالاقامة معنا فى ديارنا . وأن أشير عليه بان يخطبك من والدك وعلى ما أظن لا نحرم من وسائل ارضاء والدك

فاجابتها سلمى : افعلى ما ترين وتظنينه ممهداً للسبيل نجح الله مقاصدك وكلل سعيك بالفلاح . ثم أسندت رأسها على الوسادة واضطجعت وعيناها تتامل فى سقف الغرفة وأفكارها مشتتة سابحة فى عالم الخيال لا ترى أمامها الا ارمانيوس .

وبقيت زينب جالسة بجانبها تقدح زناد الفكر كى تعثر على طريقة تخفف بها عن مولاتها وطفقتا على هذا الصمت الرهيب زهاء ساعة من الزمان وكانهما فى منام أو احلام .

وبينما هما على ذلك الحال اذ سمعا قرع باب الغرفة

فاجابت زينب من الطارق ؟

فسمعت صوت عبد سلمى يقول : أنا ياسيدتى جئت من قبل الامير .

قالت أدخل : فدخل العبد وحيا الاميرة وقال : ان مولاى الامير يرغب فى أن تستعدى للذهاب معه فى نزهه خارج البلدة مع نزلائه الضيوف ، وهم فى

انتظار قدومك نخفق قلب سلمى فرحا بتلك الدعوة . وسرت سرورا جزيلا لانها ستتنزه بجانب من تحبه وتهواه .

فقامت من فورها ، وقالت للخادم اذهب وقل لهم انني آتيه .

ذهب الخادم وشرعت الاميرة تخلع ملابسها ولبست ألبسة كانت أعدتها خصيصا لركوب الخيل وتطيبت باطيب أنواع الطيب . فاصبحت آية الجمال وفتنة الناظرين .



النزهة خارج مكة

خرجت سلمى من غرفتها ونزلت تمشى والخادم وراءها الى ان دنت من منزل الاضياف فاعلن الخدم قدوم الاميرة . فقام من كان فى صحبة الامير لاستقبالها من الباب فدخلت وحينما وقع نظر الامير والدها عليها هش لها وبش وقال :

انى دعوتك ياسلمى لكى تتنزهى معنا حيث أعلم شغفك بركوب الجياد والتجوال فى الخلاء .

فقالت : شكرا لك ياوالدى العزيز على سمو عواطفك وجزيل محبتك وتلبية لامرك أسرعت فى المجىء

فقام الامير زهير وتبعته الاميرة ثم ارمانيوس فقيس فباقى الاصحاب وامتطوا متون الصافنات . ولبثوا سائرين حتى خرجوا من مكة ودخلوا سهولها الفسيحة وكانوا في خلال المسير يتجاذبون أطراف الحديث من نوادر الغابرين ، وقصص الأقدمين وفيما هم سائرون اذ لمحوا ظبيًا يجرى أمامهم .

فقال ارمانيوس هذا غزال سوف أصيده لكم .

فسأله الأمير زهير بقوله . هل لك خبرة بالصيد والقنص . ؟

قال نعم : ليمكننى الصيد والاقتناص دون سلاح . قال ذلك وما أسرع ان همز بطن جواده برجليه فانطلق كالسهم ودفعه وراء الغزال يطارده حتى غاب عن أعين رفاقه . فقلقت خواطرهم وعلى الأخص سلمى فانها كادت أن يغشى عليها لو لا تجلدها واصطبارها خشية الفضيحة والعار .

ومضت نصف ساعة من الزمن والقوم فى قلق الى أن ظهر غبار الجواد ثم لم يكن الا قليل حتى انكشف الغبار وبان الجواد وعليه أرمانيوس وبيده غزال كبير الحجم وهو على قيد الحياة ، فصفق له القوم . وحيوا بطولته وأخذ الخدم منه الغزال وقيدوا أرجله . فى أعقاب ذلك رجع الجمع قافلين الى سراى الامير ، وفى أثناء ما بهم

سال الامير أرمانيوس بقوله : أنبئنا كيف تسنى لك اقتناصه حيا ؟

فاجابه أرمانيوس . إن ذلك لامر يسير ، وعمل هين غير عسير . وذلك إنى أطلقت لجوادى العنان فأخذ يجرى وراءه ولم يكن إلا قليل حتى ادركته وصرت منه على كثب . وما برحت أطارده حتى رأيت أن التعب قد اخذ مأخذه منه . عندئذ قفزت من فوق سرج الجواد والقيت نفسى عليه ثم أمسكته بيدى وعدت اليكم به .

فقال الامير : لله درك من بطل همام . وما أتما كلامهما حتى رأوا أنفسهم ازاء المنزل فنزلوا وأخذ الخدم الجياد ؛ ودخل الامير وكريمته الى دائرة الحرم وذهب أرمانيوس وقيس الى غرفتهما .

وبعد ان استراحا ساعة من الزمان دعاهما الخادم الى تناول الطعام فذهبا وتناولا عشاءهما مع الامير . ثم أخذوا فى السهر والسمر ولذيذ الحديث والائتناس الى ساعتين مضتا . ثم انفض المجلس ومضى كل من الحضور فى سبيله وذهب أرمانيوس وقيس الى مقرهما ودخل الامير دائرة الحرم .

اما سلمى فانها بعد تناول العشاء مع والدتها استأذنت منها ودخلت غرفتها لتخلو بنفسها مفكرة فيما آلت اليه حالتها من العشق والغرام . ودخلت فى أثرها مربيتها زينب وبعد أن خلعت سلمى ملابسها خاطبت زينب بقولها

بماذا فكرت يا زينب ؟ وماهتديت اليه من الطرائق والوسائل وهل تسنى لك بعد اجهاد الفكر وكد الخاطر ايجاد حل لهذا الاشكال . ؟

فاجابتها ان الحل الوحيد الذى فكرت فى استصوابه واستحسانه هو اقناع أرمانيوس بالعدول عن السفر الى بلاده وترك ديانته والاقامة فى ديارنا على ديننا وان يخطبك من الامير والدك على شريطة أن لايظهر أحدكما بمظهر الحب والعشق وقد فكرت فى أن أقابل أرمانيوس على حدة وان أحادثه فى هذه الوسائل اذا تحققت منه محبته اياك .

قالت ومتى اعتزمت مقابلته . ؟

فاجابتها غداً بعد خروجكم من عند جدك سأقابلنّه على انفراد ، وأتكلم معه فى هذا الامر فاستودعك الله الآن وغادرتها تبغى الهجعة والرقاد .

فى صبيحة اليوم التالى بكر أرمانيوس بمغادرة فراشه وخرج إلى رحبة الدار يترصد مجيء خادم سلمى وأخذ يفكر فى أنه لو قضى غرضه لانتهت مهمته . ولكن كيف يذهب بعد ذلك الى بلاده ويفارق من أخذت بجامع لبه وفؤاده فاستصعب الامر وفيما هو على هذه الحالة لاحت منه التفاتة فوجد خادم الاميرة واقفًا على مدناة منه يدعوه للذهاب معه فتبعه الى أن دخلا دائرة الحرم ومشى وراء الخادم فى الطريق المفضى إلى مقام جد سلمى وفى منتصف الطريق وجد سلمى فى طريقها إلى جدها فانحنى أرمانيوس وقبل يدها بتلهف وشغف .

فسالته قائلة : كيف أصبحت أيها الضيف العزيز . ؟

فاجابها : بخير ما شملنى عطفك وحنانك أيتها الاميرة .

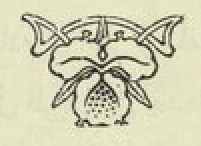
فابتسمت وقالت : هل تناولت الافطار والقهوة : ؟

فاجابها : ان غذائى رؤيتك ومادمت أكون على ميعاد معك لا أهتم اذن بطعام ولا بشراب اذ يكفينى لقاؤك الهنى . والنظر الى وجهك البهى فاحمر وجه سلمى خجلاً . وقالت : هلم بنا اذن لنتناول القهوة والفطور مع جدى ومشت فتبعها حتى وصلت الى غرفة الجد الجليل وطرقت الباب ، فعلم جدها ان سلمى هى الطارقة فاذن لها بالدخول فدخلت ومن ورائها أرمانيوس وتبوأ كل منهما مقعدا بجوار الشيخ الكبير .

فبدأت سلمى قائلة : جئنا لنتناول القهوة والطعام عندك أيها الجد الشفوق.

فاجابها الشيخ بقوله . مرحبًا بكما .

ثم نادي عبده وامره باحضار القهوة والافطار فذهب العبد ولم يكن الالحظات حتى عاد حاملا اطباق القشدة والعسل والسمن فاكلوا هنيئًا وشربوا القهوة مريئًا وبعد ان استراحوا قليلا بدأ الشيخ حديثه بقوله



محمد

صلى الله عليه وسلم

أعلما أى ولدى . أن صاحب هذه الدعوة هو محمد بن عبد الله ومعنى عبد الله الخاضع الذليل له تعالى ابن عبدالمطلب ويدعى شيبة الحمد لكثرة لهج الناس بحمده حيث كان مفزع قريش فى النوائب وملجأهم فى الخطوب والشدائد . فكان شريف قريش وعميدها وسيدها كمالا وفمالا ابن هاشم ويدعى عمرو العلا لعلو مرتبته وهو اخو شمس وكانا توءمين ، وكانت أصابع رجل هاشم ملتصقة بجبهة عبد شمس ولم يمكن نزعها إلا باسالة الدم فصار العرب يقولون سيكون بينهما دم (١) ابن عبد مناف ويسمى المغيرة ولقب بقمر البطحاء لجماله وبهائه ابن قصى وقيل له قصى لانه بعد عن عشيرته الى اخواله ابن كلاب واسمه حكيم ولقب بكلاب لانه كان يغوى القنص وا كثر ما كان يصيد بالكلاب ابن مرة بن كعب بن لوى بن غالب بن فهر بن مالك ودعى مالكا لانه ملك العرب ابن النضر بن كنانة ودعى بكنانة لتستره على قومه وكتمه لاسرارهم ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نذار بن معد ابن عدنان وينتهى نسبه الى اسماعيل

وقد قدمت لكم انه بعد أن فدى عبد الله من الذبح زوجه ابوه سيدة من قريش تسمى (آمنة) فلم يمكث عبد الله مع امرأته الا برهة يسيرة ثم قضت الظروف بشخوصه الى غزة .

يد انه مرض فى رحلته هذه فآبوا به الى مكة غير انه سطت عليه يد

(١) فكان ذلك بين بنى هاشم وبنى أمية)

المنون قبل ان يدركها وهو بجوار يثرب . وكانت آمنة حاملا فى (محمد) ولم يترك لها الا أربعة من النعم وقطيعا صغيراً من الغنم ، وجارية تسمى بركة

وكانت آمنة تقيم فى بيت بضواحى مكة شرقى الجبل المعروف بجبل ابى قبيس حيث ولدت محمداً وكان ذلك فى عام الفيل (١)

ولما وضعته كان جده عبدالمطلب فى الكعبة فحمل اليه فباركه واسماه محمدا . فقيل له يا ابا الحرث ماحدابك الى هذه التسمية . ولم لم تسمه باسم من من اسماء آبائه .

فقال . اردت ان يحمده الله فى السماء وتحمده الخليقة فى الأرض .

واعلما ياولدى انه كان بمكة وقتئذ رجل يهودى يدعى (يوسف) فلما كان اليوم الذى ولد فيه محمد ولم يكن بعد قد وصل الى علم احد من قريش مولده . قال يا معشر قريش قد ولد نبي هذه الامة هذه الليلة بناحيتكم هذه . وجعل يطوف انديتهم . فلم يلق نبأ حتى انتهى الى مجلس عبد المطلب . فسأل فقيل له ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

فقال يوسف هو نبي والتوراة

وكان يوجد بمر الظهران (٢) بمكة راهب من أهل الشام يدعى عيصا وكان قد آتاه الله علما غزيرا وكان يلازم صومعته ، وكان كلما دخل مكة ولقى الناس يقول لهم يوشك ان يولد فيكم مولود تدين له العرب . ويملك العجم قد اظلكم زمانه . وحل اوانه . فمن أدركه منكم واتبعه اصاب حاجته . وقضى طلبته . ومن أدركه وخالفه اخطأ لبانته وبغيته .

---

(١) العام الذى جاء فيه ابرهة الاشرم راكبا على فيل من الحبشة لفتح مكة سنة ٥٧٠ م

(٢) حى من أحياء مكة

وكان لا يولد مولود بمكة الا ويسأل عنه فيقول ماجاء بعد . فلما كانت صبيحة اليوم الذي ولد فيه (محمد) خرج عبد المطلب حتى اتى صومعة عيص وناداه

فقال عيص من هذا ؟

فاجابه أنا عبد المطلب . فقال عيص : كن أباه فقــــد ولد ذلك المولود الذى طالما حدثتكم بشأنه وقد طلع نجمة البارحة . وعلامة ذلك أنه لايرضع ثلاثاً ثم يعافى . فاحفظ لسـانك ولا تذكر ما قلته لاحد من قومك . فانه جدير بالحسد .

ثم من عادتنا نحن العرب أن نرضع أولادنا من المراضع . ويندر أن يربى لنا ولد على لبن أمه . وان نختار المراضع من نساء البادية لصحة أجسامهن .

ففى أثناء ولادة (محمد) جاءت نسوة من بنى سعد إلى مكة يلتمسن الرضعاء ومعهن حليمة السعدية . فكل أمرأة منهن وجدت رضيعاً إلا حليمة التى كان نصيبها أن صارت مرضعة له .

وروت حليمة للناس قائلة . ما منا امرأة إلا وعرض عليها (محمد) فتأباه عند ما يقال لها أنه يتيم . فلما أجمعنا على الذهاب قلت لزوجى انى أكره أن أعود من بين صواحبي دون أخذ رضيع . والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فآخذنه . فقال لها زوجها شـانك وما تريدين . لابأس عليك فى أخذة فعسى الله أن يجعل لنا فيه البركة والخير .

قالت : فذهبت لاخذه فاستقبلنى عبد المطلب .

فقال من أنت ؟

قلت امرأة من بنى سعد

قال ما اسمك ؟

قلت حليمه

فتبسم وقال : سعد وحلم خصلتان فيهما خير الدهر وعز الابد

ثم قال يا حليمة . عندي غلام يتيم قد عرضته على نساء بني سعد . فابين أن يقبلنه وقلن ما عند اليتيم من خير . فانما نلتمس الكرامة من الآباء . فهل لك أن ترضعيه عسى أن تسعدي به ؟ .

فقلت اعطني اياه . فتهلل وجهه بشرا واخذني فادخلني الى بيت آمنة والدة الصبي . فقالت اهلا وسهلا وادخلتني البيت . فاذا محمد مدرجا في ثوب صوف ابيض وتحته قطعة حرير خضراء رقد عليها . يفوح منه شذى الطيب . فأشفقت أن أوقظه من نومه لجماله وحسنه . فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكا وفتح عينيه الي فقبلته بين عينيه ، وحملته . ولم يكن السبب الذى حملني على أخذه الا أنني لم أجد غيره .

ثم قالت حليمة : وكان أحد ثديّ لا يدر اللبن فلما وضعته في فمه درّ منه اللبن . فرضع ورضع أخوه معه حتى رويا . وأخذت حليمة تحدث الناس بما جرى لها بعد اخذها (لمحمد) قالت : خرجنا من مكة وركبت اتاني وحملته معي واقسمت قائلة : فوالله انها سبقت رفاقي بحيث لم يقدر على مرافقتها واحدة من حمرهم . حتى أن صواحبي صرن يقلن لي يا ابنة أبي ذؤيب . ويحك أربعي علينا بالرفق . وترك الاسراع في السير . اليست هذه اتانك التي كنت عليها تخفضك طوراً وترفعك أخرى ؟ فكنت أجيبهن قائلة بلى انها والله هي . فيقلن والله ان لها لشانا .

ثم قالت ولما قدمنا منازلنا ببني سعد واني لا أعلم أرضاً من أراضي الله أجدب منها كانت غنمي منذ قدمنا تقدم عائدة من المرعى شباعاً بطاناً

غزيرات اللبن فنحلب ونشرب حتى كان المقيمون فى المنازل من قومنا يقولون لرعاتهم ويحكم أسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبي ذؤيب (يعنونى بذلك) فتروح أغنامهم خماصًا ماتبض بقطرة لبن . وتروح غنمي بطانا . فلم نزل نعرف من الله البركة والنماء والزيادة فى الخير حتى مضت سنتاه وفطمته .

ومن العجب الذى رأته حليـمة وحدثت الناس به أيضا أنه لما كان عمر محمد شهرين . كان يحبو الى كل جانب . وفى ثلاثة أشهر صار يقوم على قدميه . وفى أربعة كان يأخذ بالجدار ، وفى خمسة اقتدر على المشى . فلما بلغ ثمانية أشهر كان يرمى بالسهام مع الصبيان

قالت : وبعد أن ارضعته حولين قدمت به مكة على أمه وانا أحرص شيء على مكثه فينا لما رأيته من البركة بسببه ، فحين وصلت إلى أمه قلت لها . انني ساعود به هذه السنة الاخرى لأني اخشى عليه وباء مكة . ولم ازل بها حتى قبلت واذنت برجوعه معنا .

واعلما ياولدىَّ : أنَّ الناس كانوا يتحدثون عن طفولته بانباء عجيبة لم نسمع بمثلها من قبل . منها : أن حليمة نزلت بمحمد سوق عكاظ (١) وحينما وصلت به السوق رآه كاهن من الكهنة . فنادى بقوله يا أهل سوق عكاظ اقتلوا هذا الغلام فانسلت حليمة به فجعل الناس يقولون أى غلام ؟ فيقول هذا الغلام . فلايرون شيئا . فيقال له ماهو ؟ فيقول رأيت غلاماً والآلهة ليقتلن أهل دينكم وليكسرن آلهتكم . وليظهرن أمره عليكم .

وروت حليمة قائلة . إنى تركته ذات يوم يلعب مع ولدى خلف البيوت فاذا

---

(١) كان سوقا للجاهلية بين الطائف ونخله المعروف . وكانت العرب اذا حجت أقامت هذا السوق شهر شوال يتفاخرون فيه لذا سمي عكاظا

ولدى قد اقبل يقول لى أن اخى القرشى أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنه،فخرجت التمسه فوجدته منفرداً فسالته عن امره . فقال جاءنى رجلان فاضجعانى وشقا بطنى ، والتمسا فيه شيئاً لا أدرى ماهو وغسلاه بالثلج فخافت حليمة عليه وحملته الى أمه بمكة

وكان قد بلغ الأربع من السنين أو الخمس وحينما وصلت الى مكة فقدته فى اعاليها فاتت جده عبد المطلب وقالت : انى قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت باعالى مكة فقدته فوالله لادرى أين هو . فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعوا الله أن يرده عليه فسمع هاتفاً يقول : أيها الناس لا تضجوا أن لمحمد رباً لن يخذله ولا يضيعه فقال عبد المطلب أين هو ؟ فقال أنه بوادى تهامة عند الشجرة اليمنى .

فركب عبد المطلب نحوه وتبعه ورقة بن نوفل ولما وصلا الوادى وجداه قائماً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها . فقال له جده من أنت ياغلام؟ فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . فقال وأنا جدك عبد المطلب فدتك نفسى واحتمله وعانقه وهو يبكى . ثم رجع به إلى مكة وهو قدامه على قربوس فرسه ، ونحر الشياة والابقار واطعم الفقراء .

ثم لم يكد الحديث بجد سلمى يصل إلى هذا الحد حتى بدت عليه بوادر التعب وحان وقت الغذاء فشعروا بالجوع ، وبينماهم على هذه الحال وعلى وشك القيام اذ طرق باب الغرفة طرقا خفيفاً ودخل عبد الامير ودعا أرمانيوس للذهاب الى تناول طعام الغذاء حيث ينتظره الامير فقام وقبل يد الشيخ وقامت بقيامه سلمى ووعداه بالحضور فى صبيحة اليوم التالى ، فسر بذلك وشيعهم بنظراته ودعواته الصالحة وخرج الاثنان من الغرفة واجتازا

البهو المؤدى الى الباب الخارجى وكلاهما مطرق الرأس يفكر بصاحبه وبالحديث الذى سمعه عن محمد بن عبد الله ولم يشعرا الا وهما بجوار الباب.

فرفع أرمانيوس رأسه ونظر الى سلمى نظرة حب وهيام واستأذنها فى الانصراف فأذنت له و بودها أن لا تفارقه وكرت راجعة.

وفيما أرمانيوس يريد فتح الباب اذ بيد وضعت على كتفه وصوت رنَّ فى أذنه قائلاً :

ياسيدى اننى مربية سيدتى سلمى وأريد أن أراك على انفراد بداخل الحديقة بعد تناولك الطعام لأمر يهمك و يهم من تهتم له.

فالتفت أرمانيوس ونظر الى المتكلم فوجدها سيدة فبش لها وقال: سأحضر فى الوقت المعين.

ثم خرج من الباب الى حديقة المنزل ومنها الى غرفة الطعام فوجد الامير فى انتظاره مع جمع من أصدقائه ورأى صديقه قيس جالسًا معهم. فدخل والقى التحية فرد عليه الجمع بكل احترام وافسحوا له مكانًا بجانب الأمير ، وبعد ما جلس أخذوا يتناولون ما أحضر لهم من الاطعمة الجيدة الشهية، وكانوا يأكلون وهم سكوت خلافاً لعاداتهم. فاستغرب أرمانيوس ذلك وهم بالسؤال عن السبب لولا أن أحد الحضور سبقه وعاجله قائلا :

ما رأيكم ؟ أن الامر لخطير جداً وأن الانباء الواردة من المدينة لمقلقة ، وقد قلق لها بال رجال مكة وأشرافها حيث تدل على ان محمداً يستعد الاستعداد الكافى لمهاجمة مكة وتحطيم آلهتنا. وقد طفق قومنا يستعدون للقائه فى الهيجاء.

فاجابه أحد الحضور قائلاً : لا أظن أن فى وسع محمد وجماعته اقتحام مثل هذا الأمر الصعب وهم وان كانوا فى كل حروبهم ينتصرون الا أنهم لا يجسرون على الدنو من مكة.

فقال الامير مقاطعا لحديث القوم : سواء أكان فى وسع محمد ان يدنو من مكة ، أو ليس فى وسعه فعلى القبائل أن تستعد للقائه وحربه . والواجب على كل امرىء أن لا يستهين بعدوه مهما بلغ العدو من الضعف ، وبلغ هو من القوة .

فمن هذا الكلام الذي دار بين الحضور انجلى لارمانيوس حرج الموقف وعرف بماذا يفكر القوم وود من صميم فؤاده لو يرى محمدا وحروبه وخصوصا بعد أن سمع من جد سلمى ماسمعه عن عظمته .

وبعد ان تناول الجمع الطعام وشربوا الشراب همّ الامير بالانصراف فانصرف الجمع ودخل الامير المنزل وقام أرمانيوس وقيس الى غرفتهما فدخلاها بعد أن تفقد أرمانيوس الخدم ونظر فى أمر راحتهم . وبعد أن اطمأن بهما الجلوس خاطب قيس أرمانيوس قائلا :

حدثنى أيها الصديق هل أنت مسرور من مقابلة جد سلمى وحديثه .؟

فاجاب ارمانيوس : اعلم ياقيس . اننى وقفت على أمور قلما وقف عليها أحد واننى اليوم عرفت عن عظمة محمد ومزاياه فى طفولته ومبادىء نشاته ما أوقفنى موقف الحيرة بين تصديق نبوته ، والشك فى دعوته ؛ واننى اصبحت وكلى ميل لااستطيع وصفه الى رؤية طلعته . لذا ارجو ان يحقق الله حضوره الى مكة لارى بعينى حروبه واتحقق من خصاله المحمودة . واخذ يحدث قيسا بما تحدث اليه به جد سلمى مختصرا الحديث ما امكن . وعندما انتهى من حديثه عجب قيس غاية العجب وقال .

انه لأمر عجيب يهم العاقل معرفته ايها الصديق الاريب . ثم احس من نفسه بالميل الى الاستراحة فقال . هل لك ايها العزيز ان تاخذ قسطا من الراحة ؟

فسكت ارمانيوس هنيهة ثم قال . لتسترح انت . اما انا فانني سأكتب الى الوطن رسالة وسأختار الحديقة لكتابتها ، وقد كتم عن قيس الموعد الذى بينه وبين زينب مربية سلمى .

فاجاب قيس أفعل مايتراءى لك يا سيدي وإنني سأنام زهاء ساعة من الزمان وقام الى فراشه .

أما ارمانيوس فانه خرج من الغرفة الى الحديقة وجلس فى نفس المكان الذى جلس فيه مع سلمى وأخذ يستعرض الحوادث وما مر به وكيفية لقائه بسلمى ومحبته لها ، وما سمعه عن محمد بن عبد الله وغاص فى لجج الافكار ، وبينما هو على هذه الحال اذا يد وضعت على كتفه ، وصوت قائلة رنَّ فى أذنه قائلاً :

اسعد الله اوقاتك ايها السيد الجليل .

فبغت ارمانيوس وخفق فؤاده والتفت فاذا بزينب هى التى تكلمه . فردعليها التحية وافسح لهامكانابجانبه واستدعاها للجلوس فجلست وبدأت حديثهابقولها . ربما يستغرب مولاى مفاجأتى له بالتماس هذه الزيارة وبالاخص اذا أنا فاتحتك بحديث ربما كنت متطفلة به . ولكنه دفعنى الى ذلك حبي لسيدتى وشغفى براحتك وقد قرأت على محياك الوضاء السنى منذ يوم تشريفك لمنزلنا لواعج الغرام والهيام بسيدتى سلمى كما انى كذلك قرأت على ملامح سيدتى ما قرأته على طلعتك البهية . وعلى ما أرى لاداعى للكتمان بل يجب أن نتفاهم للوصول الى الطرق الكفيلة براحتكما . قالت ذلك ثم سكتت تنتظر الجواب .

وكان أرمانيوس مطرقا اثناء مقالها يفكر فيه ، وفى ماذا يجيب وخشى

ان تكون دسيسة دست اليه . ولكن بما انه جندى باسل وقائد شجاع على ما قلناه سابقا أبى أن ينكر محبته لسلمى وان يفوه بما ليس فى طوايا ضميره فرفع رأسه قائلاً :

نعم لقد صدق ظنك ، انى تعشقت سلمى منذ هبطت دارها . وانى على الدوام افكر فيها وأود من صميم فؤادى أن لا أفارقها ، وانى لمستعد أن أضحى كل مرتخص وغال فى سبيلها .

فاجابته زينب . انى ياسيدى على استعداد تام لان أضحى بنفسى فى سبيلكما واعلم انه من الواجب أن يبقى حبك لسيدتى مكتوماً حتى عن نفسك . لأن من عادات العرب لاسيما ساداتهم أن لا يزفون بناتهم الى عشيق ، ومن العار أن يطلب العاشق يد عشيقته ، وربما ادى ذلك الى قتل الطرفين أو أحدهما .

ثم أن لى أفتراحا وهو أن تترك بلادك وتقيم معنا حيث نقيم ثم ، تطلب يد الاميرة من ابيها ، وانى واثقة أن الامير حينما يعلم بمقامك معنا لا يحجم عن زفاف الاميرة اليك وانى ايضا ضمينة قبول الأميرة لذلك وموافقة جدها ووالدتها . لأنى أسمع من ثنائهم عليك ما جعلنى اتشجع واخاطبك بهذ الأمر .

انتهت زينب من حديثها وهى تنظر الى وجه أرمانيوس الذى بدا عليه علائم التفكير والاهتمام ، وكان قد اطرق بعد حديثها لحيظات ثم رفع رأسه قائلا :

اشكرك ياسيدتى على ما أبديت نحوى من حسن العواطف وحق على ان اقدر لك هذه الخدمة الصادقة . اما قولك عن تركى لبلادى وملكى فى سبيل من أحب وأهوى فهو شىء أوده بل هو أحب الى من كل شىء ، وأنى

لمجاهد فى سبيل تنميته وتنفيذه مهما كلفنى من التضحية والفداء .
بيد أن هناك مهمة جئت من اجلها ومثلى يجب ان يقوم بواجبه حق القيام ويؤدى الامانات الى اهلها وأى أمانة اعظم واقدس مما القى فى عنقى و عهد الى به مليكى و ولى نعمتى ,

نعم ياسيدتى يجب على أن البى نداء القلب كما انه يجب على أن البى نداء واجب الوطن . وانا الآن بين عاملين خطيرين لاسبيل الى ترك أحدهما . فدعينى اليوم وغدا افكر فى الامر وامعن النظر ، و بعد غد فى مثل هــذا الميقات نتلاقى وأعلمك بما يقر عليه الرأى .

عندئذ قامت زينب و مضت فى سبيلها بعد أن ودعته الوداع اللائق و واصلت السير الى غرفة سيدتها سلمى .

وحين وصولها طرقت الباب فأمرتها بالدخول . دخلت وقبلت الارض بين يديها ووقفت صامته.

فنظرت لها الاميرة سلمى وسألتها ما وراءك من الاخبار يازينب . ؟

فاجابتها : انى قابلت ارمانيوس ثم قصت عليها مادار بينهما من الحديث وان أرمانيوس يحبها الحب المفرط .

فسرت سلمى بذلك غير انها امتعضت من تريث ارمانيوس وتباطئه فى اتخاذ القرار النهائى ولم تكتم قلقها هذا عن زينب

فقالت لها زينب .

لاتيأسى ياسيدتى ولا بد من ان يقرر ارمانيوس مانوده اذ لا طاقة له على فراقك فتذرعى الآن بالصبر والثبات وحسن التفاؤل ولابد أن الغد يجيئنا بما يسرنا وان غدا لناظره قريب .

أما ارمانيوس فأنه قام من الحديقة الى جهة دار الاضياف ودخل غرفته

فوجد قيسا يغط فى نومه . فجلس واخرج من جيبه القلم ومن حقيبته القرطاس واخذ يحبر الرسالة الاولى الى مولاه القيصر وهى تتضمن الانباء عن الاحوال والماجريات منذ فراقه الاوطان الى مقابلته لجد سلمى وما القاه عليه من الحديث عن صاحب الدعوة الجديدة وختمها بالوعد بأنه سيوافيه بالرسالة الثانية بعد أيام ، وقد صمم على أن يتوطن بين القوم فى ديارهم وأن يهجر الاهل ايثاراً للقرب من سلمى . وبعد ان ختم رسالته وضعها فى جيبه وتوسد فراشه ونام

ولم يمض على منامه مدة وجيزة حتى سمع قيسا يوقظه فقام من منامه . فوجد قيسا وأحد الخدم واقفا بالباب يدعوهما للخروج للرياضة فى معية الامير وصحبه فخرجا وبعد ان لبثا فى الرياضة خارج البلدة زهاء الساعتين من الزمن عادوا الى المنزل وهم فى محادثة ومسامرة

ثم دخلا الى المنزل وتناولا العشاء مع الامير وجلسا يتحدثان مع القوم الى ان هم الامير بالانصراف . فانصرف الجمع وقاما هما ودخلا غرفتهما واضجعا للاستراحة .

فخاطب أرمانيوس قيس قائلا .

ايها الصديق لدى رسالة ازمعت أرسالها الى عامل القيصر ببصرى كى يبعث بها اليه اينما كان فاريد ان يحملها احد الجنود ويسير بها فهل لديك تدبير لمسيره وانفاذه . ؟

فاجاب قيس . ان هذا لمن اليسير الهين علىّ وسوف ابحث فى الصباح عن قافلة تجارية مسافرة الى بصرى نرسل الخادم معها .

فشكره ارمانيوس على حسن عنايته واستسلم كلاهما لطيف الكرى .

اما سلمى فانها باتت ليلة سعيدة وكانت طول الوقت تحلم بحبيبها ارمانيوس .

و فى الصباح بكر ارمانيوس بالنهوض من النوم و ايقظ قيسا وبعد ان جلسا قال ارمانيوس لقيس .هلم بنا الى غرفة الخدم .

فقاما واتجها نحو مقام الجنديين وكلم ارمانيوس احدهما و ناوله الخطاب و نفحه بعض الدنانير ثم قال لقيس . انني افهمته ان يطيع اوامرك فارسله فى رفقة القافلة التى تراها قد اعتزمت المسير الى الشام ووصى به خيرا . ثم قال للجندى عليك ان تحتفظ بالخطاب وعندما تصل الى بصرى تقابل الحاكم كى يبعث بك الى الامبراطور فتسلمه الخطاب وزوده بالتعليمات الكافية .

فاستصحب قيس الجندى بعد ان ودع رفيقه وأخذ امتعته وخرج به يمر على فنادق مكة وعلى مواقف القوافل وبعد البحث الكثير وجد قافلة ذاهبة الى بصرى فكلم قيس رئيسها ونفحه بعض الدنانير وسلمه الجندى واوصاه به خيرا وأفهمه بأن يوصله بصرى وان يعتنى به فى الطريق غاية الاعتناء فوعده صاحب القافلة خيراً واركب الجندى على جمل وواصى رجاله به وبقى قيس معهم الى أن توجهت القافلة وبعدت عن ناظريه فعاد الى منزل الأمير ودخل غرفته ينتظر حضور أرمانيوس . اما ارمانيوس فأنه بعد تركه لقيس وللجندى مضى توا الى الحديقة فوجد عبد جد سلمى منتظره فقاده الى الطريق المؤدى الى غرفة جد سلمى وعندما وصل الغرفة طرقها فأمر بالدخول فدخل : وقد وجد سلمى وجدها فى انتظار قدومه للافطار معهما فعجب لتبكيرهما ولكن جد سلمى قطع عليه عجبه بقوله . ان سلمى اصبحت فى شغف متزايد لاستماع بقية الحديث عن (محمد) لذا اتت مبكرة .

فاجابه ارمانيوس : لعمرك اننى لفى مثل شغفها ايها الوالد الجليل . ثم بعد أن تناولوا الافطار بدأ الشيخ حديثه قائلا .

محمد

صلى الله عليه وسلم

لقد علمتما - يا ولدىَّ - ان حليمة بعد ان رجعت بمحمد الى مكة اضلته وانبأت بذلك جده عبد المطلب وان عبد المطلب بحث عنه ووجده وعاد به وسلمه لامه آمنة

والآن اعلما أن امه شخصت به الى المدينة لزيارة اخوال جده عبد المطلب ولبثت مقيمة بين ظهرانيهم شهرا ثم ماعتمت ان رجعت وبينما هى عائدة الى الوطن مرضت فى اثناء الطريق مرضا لم يمهلها رثيما يتم لها الأياب فتوفيت بمكان يدعى (الأبواء) بين مكة والمدينة ودفنت هناك وكان عمر محمد اذ ذاك ست أو سبعا من السنين وبذلك اصبح (محمد) يتيما .

فكفله جده عبد المطلب وكان احب اليه من أولاده وكان القوم يكرمونه من أجل جده وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ ويحادثهم بما يجذب به قلوبهم وعواطفهم

ولكن لم يلبث عبد المطلب ان سطت عليه يد المنون فكفله أبو طالب (احد اعمامه) وكان ابو طالب اقل من عمه العباس مالا الا انه كان سيداً وجيها مقدما فى قريش فاحتضن الغلام وقام على تربيته وكان السبب فى اختيار ابى طالب حضيناً له دون سائر أعمامه ان ابا طالب وعبد الله اباه كانا اخوين شقيقين . ثم ان كفالة ابى طالب هذه كانت لمنفعة محمد وبقائه مصوناً محفوظا بين قومه وعشيرته لأن ابا طالب كان وجيها محترماً فى قريش .

فاقام محمد فى بيته كأحد اولاده . وكان ابو طالب كلما خرج لمتجر أو سفر استصحبه معه فينزل الديور ويجالس الرهبان والعلماء فكان لهم فيه فراسة خاصة وتنبؤ بمستقبل عظيم

ومن اشهر الاخبار حادثة نزوله دير بحيراء الذي كان على مقربة من بصرى فقد انبأ من رافقوه فى هذه الرحلة بتلك الحادثة الخطيرة وهم من الاثبات الثقات الذين عرفوا بصدق الرواية وكمال الأمانة فقد رووا . انه فى ذات يوم من الايام اعتزم ابو طالب الشخوص الى الشام فى تجارة فاخذ محمد بزمام ناقته وقال له . لمن ياعم تكلنى لا أم لى ولا أب ؟ وكان سنه وقتئذ تسع سنين فتأثر عمه من مقالته واستصحبه معه وأردفه خلفه . ولما نزل الركب ببلدة بصرى التى بقرب الشام وبناحية من نواحيها دير اقام فيه راهب يدعى بحيرا - تعرض لمكالمتهم - ولطالما مرت قريش به فلا يكلمهم حتى كان ذلك العام ؛ فانه صنع لهم طعاما كثيرا . وقد كان رأى وهو فى صومعته محمدا فى الركب حين اقبلوا وهو معهم ، ثم نزلوا في ظل شجرة فارسل اليهم يقول .

يامعشر قريش . انى صنعت لكم طعاما واريد أن تحضروا جميعكم كبيركم وصغيركم ، حركم وعبدكم ،

فقال له رجل منهم :

يابحيرا ان لك لشانا . ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر بك فلا تعرض لنا فما شانك اليوم . ! ؟

فاجابه بحيرا قائلا : صدقت قد كان ماتقول . ولكننى اليوم انبعثت فى الرغائب لضيافتكم فانتم الآن ضيوفى . وقد احببت اكرامكم فصنعت لكم طعاما .

فاجتمعوا اليه وتخلف محمد عن الحضور من بين القوم لحداثة سنه . فلما تفرس بحيرا فى القوم ولم يرى بينهم محمد الذى هو مصداق الصفة التى هى علامة النبى المبعوث فى آخر الزمان قال

يامعشر قريش . الم يتخلف احد منكم عن ضيافتى ؟

فقال احدهم : يابحيرا ماتخلف عن ضيافتك احد سوى غلام . وهو احدث القوم سنا .

فاجابه : لاتفعلوا فما اقبح ان تحضروا و يتخلف رجل واحد بينما اراه من انفسكم .

فقال القوم : هو والله اوسطنا نسبا وهو ابن اخى هذا السيد يعنون ابا طالب . وهو ولد عبد المطلب . وقام رجل منهم الى محمد فاحتضنه وجاء به فاجلسه مع القوم .

فاخذ بحيرا يلحظه بامعان عظيم وينظر الى اشياء من جسده قد كان وجدها عنده فى صفته حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام محمد فسلم على بحيرا فقال له بحيرا :

اسألك بحق اللات والعزى (١) الا ما اخبرتنى عما اسالك عنه :

فاجابه محمد بقوله : لاتسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما ابغض شيئا قط بغضهما .

فقال بحيرا : فبالله الا ما أخبرتنى عما اسألك عنه .

فاجابه سلنى عما بدالك : فجعل بحيرا يسأله عن أشياء من أحواله ومحمد يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته اى صفة النبى المبعوث آخر الزمان . ثم كشف بحيرا عن ظهر محمد فراى خاتم النبوة على الهيئة التى رأى صفتها فى

---

(١) قسم عظيم كان عند العرب فى الجاهلية

الكتب فقبل موضع الختم .

فقالت قريش ان لمحمد عندهذا الراهب لشانا .

ثم التفت بحير الى ابى طالب فقالله : ماهذا الغلام منك :؟ قال ابنى . قال ماهو ابنك . قال فانه ابن اخى . قال فما فعل ابوه . ؟ قال مات وامه به حامل.قال صدقت .ثم قال . مافعلت امه . ؟ قال توفيت قريباً . قال صدقت . ثم قال بحيرا أشفوق عليه انت . ؟قال نعم . قال والله لئن قدمت به على الشام أى تجاوزت هذا الموضع ووصلت الى داخل الشام الذى هو موطن اليهود لقتلته اليهود. فلما سمع ابو طالب منه ذلك رجع به الى مكة .

واعلما ـ ياولدىّ ـ انه كان لقريش عادة فى كل سنة ان تحضر (بوانة) ، وهو صنم تعظمه قريش . وتذبح له . وتحلق عنده . وتعكف عليه يوماً فى كل سنة . فكان ابو طالب يحضر مع قومه ويكلم محمدا فى حضور ذلك العيد فكان يأبى ذلك حتى أن ابا طالب غضب منه مرة كذلك عماته غضبن يومئذ أكبر الغضب وجعلن يقلن له .

انا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا . ويقلن الا تريد يامحمد أن تشهد لقومك عيدا ولا تكثرث بهم ، فلم يزالون به حتى ذهب معهم . وفى وصولهم الى الصنم غاب عنهم قليلا ثم رجع اليهم مرعوبا فزعاً . فقلن له مالك مرعوباً . ؟

فقال اخشى أن يكون بى مس من الشيطان .

فقلن له : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذى رأيت : ؟

فاجابهم : اننى كلما دنوت من صنم من تلك الاصنام التى حوالى الصنم الاكبر تمثل لى رجل ابيض مرتفع القوام فيصيح بى وراءك يا محمد لا تمسه .

ثم اعلما — ياولدى — ان محمدا كان من اول نشائته معروفا بين قومه بأكمل مايعرف به ناشيء من صفات الخير وكرم الخلق والتنزه عن الهنات والنقائص وكان يقضى معظم يومه بالكعبة يطارح الناس ويحادثهم فيعجبون بذكائه وقوة برهانه وبلاغة تبيانه فقد كان على حداثته وصغر سنه ذكى الفؤاد فصيح المنطق واسع الاطلاع مع انه كان اميا لايعرف القراءة والكتابة ولا يزال كذلك الى الآن وفوق ذلك كان مخلصاً حسن الطوية افضل قومه مروءة واحلاهم عشرة واحسنهم معاملة وخيرهم جودا وحزما واعظمهم سماحة وحلما. حتى اصبح لديهم ملقبا بالصادق الامين فاذا جاء او ذهب قالوا جاء الامين أو ذهب الامين حتى رغب فى مصاهرته والاتصال به ذوات المال والحسب الرفيع.

وتفصيل ذلك انه كان بمكة سيدة سرية قد عرفت بالغنى والاثراء تدعى خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قصى. وكانت لغناها واثرائها تستأجر الرجال وتضاربهم فى مالها ففى ذات يوم من الايام قال له عمه.

يا ابن اخى انى امروء لا مال لى وقد اشتد الزمان اى القحط والحت علينا اى اقبلت ودامت خمس سنوات شديدة الجدب وليس لنا مادة ولا تجارة وهذه ابل قومك قد آن خروجها الى الشام وان خديجة بنت خويلد تبعث برجال من قومك فى تجارتها. فيتجرون لها فى مالها ويصيبون من ذلك المنافع فلو ذهبت اليها فرجوتها لعطفت عليك. وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من الامانة والطهارة: وان كنت لأكره أن تذهب الى الشام حيث أخشى عليك من يهود تلك الجهة، ولكننى معذلك لا أجد بداً لك من هذا.
فاجابه محمد: لنصبر لعلها ترسل الينا من تلقاء نفسها دون أن اذهب اليها.

فقال أبو طالب : انى أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمراً مدبرا .

فبلغ خديجة ما كان من أمر هذه المحاورة فأرسلت اليه تطلبه فذهب اليها و دخل عليها فخاطبته بقولها .

يا محمد : ان الذى حملنى على أن دعوتك ما بلغنى عنك من الصدق والأمانة وكرم الشيم والطباع الحميدة . لذا اعتزمت أن أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك . فهل لك أن تذهب بتجارة لى . ؟

فقبل محمد ولبى التماسها ورغبتها وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة يريد الشام ومعهما سلعتهم وأوصت خديجة ميسرة قائلة لا تعصى له امرا ولا تخالف له رأياً .

وشخصا الى الشام وجدا فى الرحيل حتى وصل بهما السير الى بصرى ونزلا بسوقها فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطور . فخرج الراهب من صومعته الى ميسرة وكان يعرفه فقال :

ياميسرة من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة . ؟

فقال ميسرة : هو رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط انسان الا وكان نبى ثم قال لميسرة افى عينيه حمرة .

قال ميسرة . نعم لا تفارقه .

فقال الراهب . هو . هو . فهو آخر الانبياء . ليتنى أدركه حين يبعث ويؤمر بالخروج والظهور .

ثم أن محمداً حضر سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى وربح أرباحاً طائلة ماربح أحد مثلها قط .

فقال ميسرة : يا محمد لقد اتجرنا لخديجة غير مرة فما ربحنا قط مثل هذا الربح ولا غَنَمْنَا كهذا المغنم وما كان ذلك الا ببركتك ويمن طلعتك ، وبهاء وجهك . وقفلوا راجعين الى مكة فوصلاها فى ساعة الظهيرة .

وكانت خديجة إذ ذاك جالسة فى علية مع نساء فرأت محمداً حين دخل وهو راكب على بعيره . ثم أن محمداً دخل عليها وانبأها بما ربحوا وهو ضعف ما كانت تربحه فسرت بذلك وقالت أين ميسرة . ؟

فقال خلفته بالبادية . فقالت عجل اليه ليسرع بالاقبال .

وعند ما دخل عليها ميسرة أنبأها بقول الراهب نسطور وكانت خديجة من أقرب الناس نسبًا الى محمد حازمة أى ضابطة قوية ، وشريفة وهى أوسط نساء قريش شرفا واكثرهم مالا ، واحسنهم جمالا وكانت تلقب بالجاهلية (بالطاهرة) فاحبت محمداً وعرضت عليه أن يتزوجها فقبل وولدت له أولادا وهم (القاسم) وبه يكنى فيقال له (أبو القاسم) والطيب ، وزينب ، ورقيه ، وام كلثوم ، وفاطمة . ولكن القاسم والطيب ماتا قبل ان اعلن دعوته .

وبلغ محمد الخامسة والثلاثين من عمره والعرب وقريش لا يعرفون من امره اكثر مما عرفوه من حسن خصاله ، ومهارته ، واستقامته .

واتفق ان قريشا اجتمعت لبناء الكعبة والسبب في ذلك ان نفرا سرقوا كنزا كان بالكعبة فى بئر بجوفها وقد عثروا عليه عند رجل من خزاعة فقطعت يده وعمدت قريش الى بناء الكعبة وتسقيفها ،وكان البحر قد رمى بسفينة عندجدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فاخذتها قريش واعدتها لتسقيف الكعبة .

وكان بمكة رجل قبطى يحسن صناعة النجارة فاغتنمت قريش الفرصة فكلفته

أن يشيد سقفا للكعبة واقتسموا العمل لكيلا يحوز أحدهم من الشرف بذلك أكثر مما يحوزه الآخر وجاؤا بالأحجار والاخشاب حتى تم البناء ولم يبق إلا الركن (١) فاختصم القوم فيمن يرفعه منهم وطفقت كل قبيلة تدعى أنها الأحق برفعه حتى احتدم الخصام وهموا بالقتال فتدارك عقلاؤهم الأمر وأجمعوا الرأى أخيرا على أن يحكموا فيما بينهم أول داخل من باب الحرم فى ذلك اليوم فكان أول من دخل محمدا فسروا بذلك وقالوا هذا هو الامين قد رضينا به حكما وانبئوه بالامر فرأى من الصواب أن يؤتى بثوب متسع يوضع الركن فيه وتأخذ كل قبيلة بطرف من أطرافه ففعلوا وأخذوا بالثوب وفيه الركن حتى بلغوا موضعه وهنالك حمله هو بيده ووضعه موضعه وانحسم الخلاف وكان لرأيه هذا أطيب الأثر وأينع الثمر فى قلوب القبائل

ولم يكد الحديث يصل بجد سلمى إلى هذا القدر حتى دق الباب دقا خفيفا فأذنوا للطارق بالدخول وإذا به عبد الامير زهير جاء ليدعو أرمانيوس إلى تناول الطعام حيث الامير ورفاقه ينتظرون قدومه فقام أرمانيوس وقبل يد الشيخ وقامت بقيامه سلمى وودعت جدها قائلة: سنحضر فى صبيحة الغد أي جدى المحترم فأجابها بقوله: أى بنيتى إننى أشعر بتعب شديد ولعله يستدعى الراحة نحو أيام لذا أرى من الاليق أن يكون حضوركم بعد ثلاث عسى أن أكون قد استرددت قوتى وإذ ذاك يتسنى لى إتمام الحديث لكما. فبدا عليهما الاسى من كلماته وتمنيا له صحة جيدة وودعاه وانصرفا على أن يعودا اليه بعد الثلاث وشيعهم هو بنظراته المفعمة عطفا وحنانا ودعوات صالحة

خرج إرمانيوس من الغرفة إلى البهو المؤدى إلى الباب الخارجى وهو

(١) الحجر الأسود

مطرق الرأس يفكر بالاميرة سلمى و بالحديث الذي سمعه من جدها إلى أن خرج من المنزل إلى الحديقة ومنها الى دار الضيافة ودخل غرفة الطعام ووجد القوم فى انتظاره فألقى التحية فرد عليه الجمع بكل تجلة واحتفاء وأفسحوا له مكانا بجانب الامير وبعد أن استقر به الجلوس أخذوا يتناولون ما هيء لهم من أطعمة طيبة شهية فاكلوا هنيئا وشربوا مريئا وفى أثر ذلك قام الامير ودخل دائرة الحرم وانصرف أصحابه إلى منازلهم . أما أرمانيوس وقيس فذهبا إلى غرفتهما يلتمسان الراحة

و بعد أن أخذا مضاجعهما من الفراش سأل أرمانيوس قيسا هل سافر الجندى ؟ فاجابه بانه غادر مكة وهو الآن فى طريقه إلى بصرى فشكره على علو همته وطفق يحدثه بالحديث الذى سمعه من جد سلمى فكان عجب قيس عظيما بحيث لبثا مليا لم يغمض لهما جفن لما راعهما من عظمة محمد (ﷺ) ودعوته و كبر شانه ومزيته ولبثا على هذا زهاء ثلاث من السعات حتى دخل عليهما أحد الخدم وقدم لهما القهوة ثم نبهاهما بان يكونا على استعداد للركوب مع الامير ابتغاء الرياضة فى ضواحى مكة حسب العادة المعتادة فشربا القهوة وخرجا فوجدا الأمير فى انتظارهما مع لفيف من أصحابه فركبوا جميعا الجياد وخرجوا يرتاضون خارج مكة ولم يكن إلا قدر ساعة من الزمن حتى عادوا أدراجهم إلى المنزل وأخذ الخدم الجياد وذهبوا هم إلى غرفة الطعام فتناولوا العشاء وجلسوا مقدار ساعتين من الزمان يتسامرون ويتجاذبون أطراف الحديث و يتكلمون فى مختلف الشؤون إلى أن انصرف الامير وأصحابه وقام أرمانيوس وقيس ودخلا غرفتهما يلتمسان المضجع .

سلمى ووالدتها

بعد مغادرة الاميرة سلمى لغرفة جدها ذهبت توا فدخلت إلى غرفتها وأغلقت وراءها الباب و بقيت حزينة كئيبة لانقطاعها عن ملاقاة أرمانيوس لان حديث جدها كان هو الواسطة الوحيدة لان تلتقي بمن تحب وتهوى ، أما وقد اعترى جدها الانحراف والتعب ولم يعد في الامكان الورود عليه إلا بعد ثلاثة أيام فكيف يتسنى لها إذ أن تقابل ذلك الحبيب لذا استولت عليها الهموم ولبثت مستغرقة فى تيار التفكير و بينما هى غارقة فى لجج الافكار إذ دق الباب فقالت من الطارق ؟ ثم سمعت صوت والدتها فقامت مسرعة وفتحت بابها و إذ بها ترى الاميرة والدتها فتراجعت إلى الوراء وجلة محتشمة واجتهدت أن تخفي معالم تاثرها واضطرابها فلم تتمكن وفاجاتها والدتها قائلة مالى أراك ياسلمى حزينة مشغولة البال ؟

فاجابت لا شيء ياوالدتى غير أنى أشعر بضعف وفتور ألم بالجسم

قالت والدتها : ولكننى لحظت عليك تغيرا منذ عشرة أيام حتى سألت زينبا عن ذلك فانباتنى بانك مريضة فما هى الاسباب وما هى حقيقة الحال يابنيتى ؟ ودنت منها وانحنت تقبلها قبلات العطف والحنان . فاجابت : نعم ياوالدتى إننى حقيقة أشعر بتعب منذ عشرة أيام غير أنى ما كنت أجد منه ألما مثل ألمى اليوم حيث خرجت من لدن جدى وبرأسى دوار ووجع فجئت ألتمس الراحة والهدوء معتزمة أن أذهب بعد ذلك إلى تنال الطعام معك ولكننى بعد أن خلعت ملابسى واضطجعت لم أقو على القيام .

فاجابت الوالدة : إن تاخرك عن الحضور لتناول الطعام هو الذى دعانى للمجيء اليك فمتى خرجت من عند جدك ؟

قالت : منذ ساعة تقريبا

قالت : اليس فى مقدرتك ان تذهبي معى الآن الى تناول الطعام ؟ لانني الى الآن لم اذق منه شيئاً فاجابت ليتني يا اماه أقدر ومع هذا فان اخالف لك امرا وأنني ذاهبة معك على شريطة عدم تناولى شيئا فقالت شأنك وماتريدين يابنيتى وقامت سلمى واستندت على ذراع والدتها وذهبت معها الى غرفة الطعام وجعلت تسامر والدتها وتحدثها بمختلف الشئون وتلقي عليها ماسمعت من جدها عن محمد وعظمته الى إن انتهت الوالدة من أمر الغذاء وقامت وصاحت بزينب فحضرت على الفور ، وقبلت الأرض بين يدى الاميرة فاصدرت اليها الأمر بأن تمضى مع سلمى الى غرفتها ولا تتركها وحدها ، ودعت لابنتها بالشفاء وودعتها

أما سلمى فأنها اتكأت على زراع زينب وسارت حتى دخلت الى غرفتها ثم قالت

أوصدى الباب يازينب وتعالى فاجلسى الى جانبي وأرشدينى كيف افعل . زينب : ان قلبي كاد ان ينفطر ، أسعفينى ، أغيثينى ؛ قالت ذلك وهى تذرف الدموع ثم أخذت تنادى ارمانيوس ، ارمانيوس ، كيف اصبر على الفراق وقلة التلاق ثلاثة أيام آه أنها لمدة مديدة .

فسألتها زينب عن الخبر فاعلمتها بمرض جدها وأنه لا يتاح لها مقابلته إلا بعد ثلاثة أيام لذلك حرمت من لقاء حبيبها ارمانيوس فتأثرت زينب من حال سيدتها ثم أخذت تمنيها باطيب الأمانى وتبشرها بقرب نيل الآمال وأنها لابد نائلة بغيتها من الاقتران ولابد من الفرج على مدى الأيام وسوف تمضى هذه الايام الثلاث وتلتقى بالحبيب . ثم قالت .

ان حزنك ياسيدتي لايجدي وليس منه فائدة بل بالعكس يعود عليك بالضرر اذ يجهد فكرك ويضير بجسمك ويجلب المرض والوصب واذا ألم بك المرض لاسمح الله تكون العاقبة وخيمة على حبيبك اذ لو علم بمرضك أو سوء أصابك فلا شك أنه يهلك أسى وجوى عليك وهذا مالا تريدنه له ثم كنت أود ان أقابله فى الغد حسب وعده كى اطمئن واثق من موافقته على اقتراحي ولكن مرض جدك جاء حائلا دون ذلك وستعلمين عن قريب بموافقة ارمانيوس على البقاء معنا وسوف تنسين كل هذه البلابل والاشجان وتزول كل هذه الهموم والاحزان ولم تزل بها زينب تعللها بمثل هذه الآمال حتى هدأت من روعها وأصبحت مشروحة الصدر ليس بها من ضيق ولا أنقباض فلما أن آنست منها الانبساط والانشراح استأذنتها فى استحضار قليل من الطعام ، فاشارت اليهاسلى بالموافقة ، فقامت زينب وأتت بشيء من الاطعمة فاكلت منها وشربت ثم أخذت تعلل النفس بانقضاء الامد المضروب والقرب من التلاقي بحبيبها المطلوب



هرقل وخطاب أرمانيوس

منذ غادر ارمانيوس بلاده متيما شطر الحجاز با مرمن الامبراطو رهرقل والامبراطور فى اضطراب وقلق على قائد جيشه واصدق مخلص بين رجال بلاطه وكان يعد الايام ويعلل النفس بقرب مجئ الرسول من قبل ارمانيوس . وكلما مضى يوم من الايام دون حضور رسوله تتزايد همومه و يتضاعف بلياله .

و بينما هو جالس ذات يوم يفكر فيما صار اليه قائد جيشه وفيما هو سبب تأخيره اذ دخل عليه الحاجب وأعلمه بقدوم رسول من قبل حاكم بصرى ومعه جندى آخر فأمره بادخالهما اليه فدخلا وقبلا الأرض بين يديه ثم تقدم رسول الحاكم قائلا

أى صاحب الجلالة أرسلنى مولاى الحاكم بهذا الجندى الذى حضر مع قافلة من الحجاز يحمل خطابا أبى تسليمه إلا الى جلالتكم ، ثم أفسح للجندى الذى كان واقفا خلفه فتقدم الجندي وسجد ، وناول الامبراطوار الخطاب فتناوله وفضه فوجده من ارمانيوس فأمرهما بالخروج والانتظار فخرجا وجلس الامبراطور وهو فرح لوصول خطاب ارمانيوس وتلاه مرارا وتكرارا ووجده حاويا لرحلة ارمانيوس منذ غادر بلاده الى آخر ماسمعه من حديث جد سلمى ولم يترك ارمانيوس شاردة ولا واردة إلا وسردها ماعدا عشقه لسلمى فانه أكتمه ولم يأت على ذكره ، فأخذ القيصر يفكر عن مضامين الخطاب . ثم ناجى نفسه قائلا : الآن وقد لمع لى شىء من الحقيقة فلابد من ظهور الحقيقة

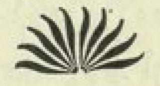
بجملتها وذلك عند مايرسل ارمانيوس بقية بحثه ولكن يجب إن أراجع الكتب القديمة وان أبحث الابحاث الدقيقةوآن أبعث لصاحبي (برومية) اسأله رأيه . وكان له صاحب برومية نظير في العلم ، فلعلى أكتشف الحقيقة ثم أخذ فى تحرير رسالة الى ارمانيوس و بعد الفراغ من كتابتها صاح بالحاجب وأمره بادخال رسول حاكم بصرى والجندي الذى معه فدخلا وقبلا الارض فوجه الامبراطوار كلامه الى رسول حاكم بصرى قائلا .

بلغ الحاكم رضائى عنه وسروري بسرعة إرساله الجندى والخطاب وانى آمره أن يبحث عن قافله ترجع بالجندى الى الحجاز مسرعة ثم خلع عليه خلعة ملوكية وخاطب الجندى بقوله : وأنت أيها الجندى عليك أن تعود حالا الى مكة وتقابل ارمانيوس وتسلمه هذا الخطاب ثم نفحه مائة دينار مكافأة له ، وسلم اليه صندوقا يحوى جواهر نفيسة ليسلمه لارمانيوس ، وكان القيصر فكر بان هذه الجواهر لابد أن تنفعه فتقوم مقام الاموال ثم أمرهما بالانصراف فانصرفا . اما هو فانه أخذ يرصد ورود الاخبار من ارمانيوس

ذهب الرسول والجندى وركبا جواديهما ميممين نحو بصرى ولم يزالا مجدين السير الى أن وصلاها فدخل على الحاكم و بلغه الرسول رسالة القيصر اليه ورضائه عنه ، فصدع الحاكم بامر مولاه وأرسل من يسأل عن قافلة ذاهبة الى الحجاز فلم يلبث السائل ان علم بان قافلة أزمعت الرحيل الى الحجاز مساء ذلك اليوم فارسل فى الحال واستدعى اليه رئيسها وسلمه الجندى ونفحه بعض الدنانير وأمره بايصاله الى مكة بمنزل الامير زهير الذى علم به من الجندى . فتعهد الرئيس بذلك وتسلم الجندي وسار به الى القافلة ولم يأت المساء حتى تحركت القافلة فى طريقها الى مكة

هذا ما كان من القيصر والجندى اما ما كان من ارمانيوس وسلمى فانهما لبثا منتظرين الثلاثة الايام على احر من الجمر وكانت سلمى تذهب الى غرفة جدها مستبشرة عن صحته فى كل يوم الى أن انقضت الايام واستعاد جدها قوته فارسل اليها كى تحضر صباحا مع ارمانيوس . فانشرح صدر سلمى بذلك وتسرى ما كان به من هموم وفى صبيحة اليوم الثانى بينما ارمانيوس جالس فى غرفته اذ بخادم الاميره سلمى يدعوه للذهاب معه الى غرفة جد سلمى ولا تسل عما اعتراه من طرب وسرور وفرح وحبور فقام من ساعته وايقظ قيسا قائلا له :

انى ذاهب الى جد سلمى . ثم ذهب مع الخادم الى أن دخل المنزل والخادم معه وسارا الى أن وصلا الغرفة فطرق الخادم الباب فاذن له بالدخول فدخل ووراءه ارمانيوس ثم خرج الخادم وتقدم ارمانيوس من الشيخ وقبل يده وسأله عن صحته فشكره الشيخ ثم تقدم من الاميرة سلمى وصافحها ونظر اليها نظرة الشوق والغرام والصبابة والهيام فقابلته بالمثل ، وجلس بجوار الشيخ ينصت الى الحديث الذى بداه الشيخ بقوله



محمد

صلى الله عليه وسلم

اعلما — أي ولدى — انه بعد اختلاف القبائل على وضع الركن وحكمه وانتهاء المشادة بين القبائل أخذ القوم يتحدثون عن حسناته و يعجبون باخلاقه وسيره السيرة المثلى حتى بلغ الاربعين من العمر فانقطع عن الناس واعتزل فى الشعب والجبال وصار يأوى الى الكهف وكان اكثر اعتزاله فى غار حراء (١) وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح أى صادقة ، وفى ذات يوم رجع من الجبل ودخل على خديجة وهو مرتجف وجل قائلا زملونى (٢) فزملوه حتى ذهب عنه الروع فسألته خديجة عن هذا الحال فقال : بينما كنت فى غار حراء جاءنى الملك فقال لى اقرأ قلت ما أنا بقارىء ، فغطنى (٣) حتى بلغ منى الجهد ، ثم ارسلنى (٤) وقال اقرأ قلت ما أنا بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلنى وقال اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثالثة ثم ارسلنى وقال اقرأ بسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . أقرأ وربك الاكرم . هذا ما حدث لى ، وقد خشيت على نفسى فقالت خديجة : كلا ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتكسب المعدم ، وتقرىء الضيف وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب

(١) جبل بمكة (٢) أي غطونى (٣) أي فضمنى (٤) أى تركنى

الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ان يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى

فقالت له خديجة يا ابن عمى اسمع من ابن أخيك محمد مارأى. فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فاخبره خبرما رأي. فقال له ورقة هذا هو الناموس الذى انزله الله على موسى يا ليتنى اكون حيا اذيخرجك قومك. فقال محمد أو مخرجى هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى، وان يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا ثم توفى ورقة.

وفى ذات يوم آخر أى بعد عشرة أيام من هذه الحادثة جاء الى خديجة مرعوبا وقال زملونى يعنى غطونى

فقالت خديجة مابك؟ قال بينما أنا ماش سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا بالملك الذى جاءنى حراء جالسا على كرسى بين السماء والارض وقال لى: يا أيها المدثر قم فانذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولربك فاصبر) ثم بعد ان مضى زمن قليل أتى محمد الى خديجة قائلا لها ان الملاك جاءه وعلمه الصلاة فعلمها اياها ثم علمها لعلى بن أبى طالب وكان غلاما صغيرا ولزيد بن حارثة مولاه. وهؤلاء الثلاث هم أول من آمن بدعوته. ثم علمها أيضا لعبد الله بن أبى قحافة الذي يسمونه الآن أبا بكر ولقد لبثت دعوته هذه سرا مكتوما زهاء ثلاث سنين فكان لايعلنها الالمن يثق به. وكان أصحابه اذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى الشعاب وحدث بينما كان بعض من آمنوا بدعوته وهم سعد بن أبى وقاص وعمار ابن مسعود وسعد بن زيد يصلون فى شعب اذ طلع عليهم نفر من قريش. منهم أبو سفيان بن حرب والاخنس بن شريق وأخرون فسبوهم وأدى الأمر بهم الى القتال فضرب سعد رجلا من قريش بلحى جمل فشجه، فكان هذا الحادث أول دم أريق فى الاسلام.

وبقي محمد يتلو الآيات التي يقول أن ربه علمه اياها والعرب لا يعبأون بذلك لانه لم يمس آلهتهم ولكنه مالبث ان قال أن الله أمره أن ينذر عشيرته وأنه أنزل عليه قوله (وأنذر عشيرتك الاقربين) فاشتد عليه ذلك وضاق به ذرعا وجلس فى بيته كالمريض فاتته عماته يعدنه . فقال لهن ما أشتكيت شيئا ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الاقربين . فقلن له أدعهم ولا تدع أبالهب فانه غير مجيبك . فدعى عمومه وعشيرته الاقربين الى وليمة وكانوا خمسة وأربعون رجلا . فلما أكتمل جمعهم قام بينهم قائلا (الحمد لله احمده وأستعينه وامن به وأتوكل عليه وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له) ثم قال (ان الرائد لا يكذب أهله. والله الذى لا اله الا هو . انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون وأنها الجنة أبدا او النار أبدا)

فقال له أبو طالب : ما أحب الينا معاونتك ، واقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو ابيك مجتمعون وانما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم الى ماتحب فامض كما أمرت به ، فو الله لا ازال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب

وقال ابو لهب : وكان قد حضر مع القوم . هذه والله السوء خذوا على يديه قبل قبل أن يأخذ غيركم .

فقال أبو طالب والله لنمنعنه مابقينا .

ثم أعاد القول أبو لهب منكرا عليه جرأته هذه ونصح له ان يرجع عن ذلك فابى ولم يزدد الا تمسكا

واعلما - أى ولدى - أنه بلغ القوم ان محمدا (ﷺ) سب آلهتهم وعاب أصنامهم فشق ذلك عليهم فاجتمعوا وفيهم نخبة من أشراف قريش ، وتداولوا

فى امره وماجاء به فتهيأ لبعضهم ان يقتلوه وقال البعض الآخر اذا قتلناه اسأنا الى عمه ، وهو شيخ جليل القدر ، فالافضل ان نخاطبه بشأن ابن أخيه فهو يتدبر الأمر بحكمته و يكلمه بالعدول عن ذلك

فسار وا جميعا الى منزل أبى طالب فاستقبلهم بالرحب والسعة وأكرم وفادتهم على جارى عادته ولما أستقر بهم المقام .

قالوا يا أبا طالب أن ابن أخيك محمدا (صلعم) قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا (١) ، وضلل آباءنا ، فاما ان تمنعه عنا أو تخلى بيننا و بينه فانك على مثل مانحن عليه من خلافه فنكفيكه .

فاجابهم أبو طالب جوابا لطيفا ، ووعدهم وعدا حسنا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه على أمل ان يردع ابن أخيه عن عمله . ولبثوا ينتظرون فاذا هو باق على ما كان عليه . ومازال العرب يسمعون مثل مايسمعون منه من قبل حتى هموا بقتله والفتك به غير أنهم رأوا ان يرجعوا الى مجاملة عمه فاجتمعوا اليه مرة أخرى وقالوا له .

يا أباطالب : ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وأنا قد أستنهيناك من ابن أخيك محمد ، فلم تنهه عنا وانا لانصبر على هذا من شتم ابائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى يهلك احد الفريقين فلاطفهم أبو طالب وأنسوا منه فى هذه المرة أنصياعا وكان قد عول على إجابة سؤلهم اذ لاصبر له على مفارقة قومه وعشيرته ومعاداتهم.

وبعد ان خرجوا من منزله بعث الى ابن أخيه فحضر فقال له .

يا ابن أخى : ان قومك قد جاؤا الى وحدثه بحديثهم ثم قال له فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الامر مالا أطيق .

---

(١) أى آراء عقلائنا

فاجابه محمد (صلعم) باجوبة عاين منها الاصرار على معتقده والبقاء على عزمه مما كاد يغضبه لولا ان محمدا قال له

ياعم.لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهر أو أهلك فيه ماتركته . ثم بكى وقام ، فرق له قلب عمه وتذكر أنه فى منزله ، وله عليه حق الجوار ، فلما رآه اخذا فى الانصراف ناداه فاقبل فقال له أذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لاحد أبداً .

فعرفت قريش ذلك وعلمت أن أبا طلب لايخذل محمدا (صلعم) فذهبوا اليه ومعهم عمارة بن الوليد قائلين له .

يا أبا طالب . هذا عمارة بن الوليد فتى قريش واشعرهم ، واجملهم ، فخذه فلك عقله ونضرته ، فاتخذه ولدا واسلم لنا ابن أخيك هذا الذى سفه أحلامنا وخالف ديننا ودين ابائك وفرق جماعة قومك نقتله فانما رجل برجل .

فقال لهم . والله لبئس ماتسوموننى أتعطوننى أبنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم أبنى تقتلونه ، هذا والله لا يكون أبدا .

فقاموا من عند ابى طالب وتداولوا فيما بينهم فاتفق رأيهم على دعوته (أى دعوة محمد) والتحدث معه ، ومخاصمته حتى يعذروا فيه . فاجتمعوا بالكعبة وفيهم أشراف قريش واستقدموه فجاء فقالوا له .

يا محمد لقد بعثنا اليك لنكلمك فاننا لا نعرف رجلا من العرب ادخل على قومه مثل ما ادخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الاحلام ، وفرقت الجماعة ، فما من امر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه (يعنوا جنيا)

قد تغلب عليك بذلنا لك من أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو فنعذر فيك

فاجابهم بقلب لا يهاب الموت قائلا : مابى ماتقولون ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى رسولا وانزل على كتابا وأمرنى ان اقوم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان لم تقبلوا صبرت حتى يحكم الله بينى وبينكم فارادوا ان يمتحنوا اعتقاده فقالوا له .

يامحمد : ان كنت غير قابل شيئا مما عرضناه عليك فانك تعلم انه ليس احد اضيق بلدا ، ولا أقل مالا منا فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ان يغير عنا هذا الحال الذى ضيق علينا ، ويبسط لنا بلادنا وان يفجر لنا فيها أنهارا كانهار الشام ، وان يحيى لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يحيه لنا قصى بن كلاب فانه كان شيخا صادقا فنسأله عما تقول اهو حق أم باطل فان اجبتنا الى ماسألناك صدقناك وعرفنا منزلتك عند الله وانه بعثك رسولا كما تقول .

فاجابهم دون تردد ولا لجلجة قائلا : مالهذا بعثت اليكم انما جئتكم من الله بما بعثني به . وقد بلغت ماارسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على اصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم

وطال الجدل بينهم وهو ثابت على قوله حتى تفرقوا دون ان يجدوا سبيلا الى ارغامه

واعلما — أى ولدى — أن أمر محمد (صلعم) مازال يستفحل حتى كثر انصاره ولكنهم كانوا يلاقون من قريش الوان العذاب ويتكبدون الامور الصعاب ، والاضطهاد الشديد فى احتمال وثبات . وكانت كل قبيلة تعمد الى مستضعفيها المؤمنين فتذيقهم ضروب الاهانات من سجن وضرب واجاعة وعطش وما الى ذلك .

من ذلك ان أمية بن خلف الجمحى أتى بيلال بن رباح الحبشى والقاه فى الرمضاء على وجهه، وكان اذا حميت الشمس أتى بصخرة وأمر بوضعها على صدره قائلا . لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد . ثم يسلمه الى الولدان فيطوفون به شعاب مكة وهو يقول أحدا. أحدا (يعنى الله واحد)

وممن أذيق العذاب من قريش عمار بن ياسر أبو اليقظان أى الذى آمن بمحمد هو وأبوه وامرأته فكانت قريش تخرجهم الى الابطح اذا حميت الرمضاء ويعذبونهم فيمر بهم محمد (صلعم) قائلا لهم صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة ومات ياسر فى العذاب واغلظت امرأته سمية القول لابى جهل فطعنها فى قلبها بحربة فى يده فماتت وهى أول شهيد فى الاسلام .

وكذلك خباب بن الارت فانهم كانوا يعرون جسده ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرضف (أى الحجارة المحمات بالنار) ويلوون رأسه ويامرونه بسب محمد فيصبرون أن يجيبهم الى ما أرادوا . وأيضا لبينة جارية بنى مؤمل ابن حبيب بن عدى فانها آمنت بمحمد قبل عمر بن الخطاب فكان عمر يعذبها ثم يدعها قائلا . انى لم أدعك الاسآمة . فتقول كذلك يفعل الله بك ان لم تسلم فمر بها عبدالله بن أبى قحافة (أبو بكر) واشتراها وعتقها . وكذلك ممن سيموا أشد ضروب التعذيب زنيرة وكانت جارية لبنى مخزوم فامنت فعذبها ابو الحكم ابن هشام (ابو جهل) حتى عميت فقال لها ان اللات والعزى فعلا بك هذا . فقالت لايدرى اللات والعزى من يعبدهما ولكن هذا أمر من السماء وان ربى لقادر على رد بصرى فاصبحت من الغد وقد رد الله بصرها فقالت قريش هذا من سحر محمد وهكذا كانت قريش يأتون بالرجل ويامرونه بالكفر فان لم يفعل عذبوه وانبوه قائلين له تركت دين ابيك وهو خير منك لنسفهن حلمك

ولنقبحن رأيك ولنضعن شرفك ، فان كان تاجرا هددوه بكساد تجارته وسلب أمواله.

ولما رأى محمد (صلعم) ما يصيب اصحابه قال لهم لو خرجتم الى ارض الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما انتم فيه .

فخرج فريق من أصحابه الى الحبشة خشية الفتنة فكانت أول هجرة لاصحاب محمد . وخرج فيمن خرج عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة محمد (صلعم) معه ، وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته معه والزبير ابن العوام ، وغيرهم الى تمام العشرة رجال واربعة نسوة

ولم يزل محمد تنزل عليه الآيات وفيها الطعن على آلهة قريش . منها قوله (افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى) حتى ازدادت قريش والقبائل نفورا وحاروا في أمره ولبثوا يتحينون الفرص للايقاع به وكثيرا ما كان رجال منهم اذا التقوا به هددوه وهو لا يبالى

أما أصحابه الذين هاجروا الى الحبشة فانه بدا لفريق منهم ان يرجعوا الى مكة وفريق آخر رأى الاستمرار والمضى فى هجرته أما الذين عادوا فلم يدخل أحد منهم مكة الا مستخفيا أو بجوار أحد ؛ فدخل عثمان بن عفان فى جوار احيحة سعيد بن العاص بن أمية فآمن هذا بمحمد ودخل أبو حذيفة بجوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة . وكان لبيد بن ربيعة ينشد قريشا فى مجلس كان عثمان بن مظعون حاضر به قوله (الا كل شيء ماخلاالله باطل) فقال عثمان صدقت فلما قال (وكل نعيم لامحالة زائل) قال له كذبت فان نعيم الجنة لايزول فغضب لبيد وقال

ماكانت يا معشر قريش مجالسكم هكذا ولا كان السفه من شأنكم ، فاخبروه خبر عثمان و خبر ذمته. فقام بعض بني المغيرة فلطم عثمان، فضحك الوليد شماتة حيث رد جواره وقال لعثمان : ما كان أغناك عن هـذا ، فقال ان عيني الاخرى لمحتاجة الى مانال هذه فقال له ، هل لك أن تعود الى جواري ؟ فقال لا أعود الى جوار غير الله .

فقام سعد بن أبي وقاص الى الذى لطم عثمان فكسر أنفه فـكان أول دم أريق فى الاسلام على قول

وأقام أصحاب محمد فى مكة يؤذن فلما رأوا ذلك أخذوا يهاجرون الى الحبشة حتى اكتمل عددهم اثنين وثمانين رجلا ومحمد مقيم بمكة فلما رأت قريش ان الذين ذهبوا الى الحبشة قد اطمأنوا وأمنوا وأن النجاشي قد أحسن وفادتهم ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا من ياتى بهم. فبعثوا عمرو بن العاص وعبدالله ابن أمية ومعهما هدية الى النجاشي وهدايا الى أصحابه وساراحتى وصلا أرض الحبشة فحملا الى النجاشي هديته والى أصحابه هداياهم قائلين لهم

ان ناسا من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دين الملك وجاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد أرسلنا اشراف قومهم الى الملك ليردهم الى مكة ، فاذا نحن كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بان يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم . وكانا خافا ان سمع النجاشي كلام المسلمين أن لا يسلمهم فوعدهما خواص الملك المساعدة على مايريدون

ثم انهما حضرا عند النجاشي فاعلماه بما قد قالاه وأشار عليه خواصه بتسليم الملتجئين اليهما فغضب من ذلك وقال : والله لااسلم قوما جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى ادعوهم واسالهم عما يقول هذان فان كانا صادقين سلمتهم اليهما وان كانا على غير ما يذكر هذان منعتهم واصنت

جوارهم ثم ارسل النجاشي الى اصحاب النبي فدعاهم فحضروا وقد اجمعوا على صدقه فيما ساءه وسره وكان المتكلم عنهم جعفر بن ابي طالب

فقال لهم النجاشي : ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولماذا لم تدخلوا فى ديني ولا دين أحد من الملل ؟ فأجابه جعفر . ايها الملك كنا اهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله رسولا منا الينا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا لتوحيد الله ، وان لانشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الاصنام ، وامرنا بصدق الحديث واداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وامرنا بالصلاة والصيام وسرد عليه امور الاسلام التى علمهم محمد إياها . فامنا به وصدقناه وحرمنا ماحرم علينا وحللنا ما أحل لنا فاعتدى علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على سواك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك . فقال النجاشي هل معك مما جاء به من عند الله شيء ؟ قال نعم .

فقرأ جعفر عليه شطرا من (كهيعص) فبكى النجاشي واساقفته وقال . ان هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ثم أمرهم بالانصراف والتفت الى عمرو وصاحبه وقال لهما انطلقا والله لا اسلمهم اليكما ابدا .

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لآتينه غدا بما يبيد خضراءهم فقال له عبد الله بن أبي أمية وكان اتقى الرجلين . لا تفعل فان لهم أرحاما . فلما كان الغد جاء الى النجاشي قائلا : ان هؤلاء يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما فارسل النجاشي فسألهم عن قولهم فى المسيح . فقال جعفر نقول فيه الذي جاءنا به

نبينا . هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمة منه ألقاها الى مريم العذراء البتول فقال لهم اذهبوا فانتم آمنون .

هذا ماحصل لمن هاجر الى الحبشة . أما من بقي فى مكة فانهم كانوا يضطهدون الى هـذا الحد . وهو انه بينما كانت قريش يوم بالحجر فذكروا محمدا وما ناله منهم وفيما هم كذلك اذ طلع محمد ومشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا فغمزوه ببعض القول فلما مر بهم ثانيا غمزوه بمثلها ثم الثالثة .

فقال أتسمعون يامعشر قريش : والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح وانصرف حتى اذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم حتى اذا أتاكم بما تكرهون تركتموه فبينما هم كذلك اذ طلع محمد (صلعم) فوثبوا اليه وثبة رجل واحد يقولون له انت الذى تقول كذا وكذا فيقول أنا الذى أقول ذلك . وبلغ منهم الحقد عليه الى حد ان عقبة بن أبى معيط وطيء عنقه وهو ساجد بين يدى الله عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان وخنقه خنقا شديدا فقام عبد الله بن أبى قحافة (أبو بكر) دونه فجذبوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره فقال أبو بكر وهو يبكى ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وهكذا كان محمد يحتمل من قومه فى سبيل دعوته مالا يقدر غيره على أن يحتمل عشر معشاره

من ذلك أن عمه (أبالهب) كان دأبه التكذيب له ، وكان يطرح العذرة والنتن على بابه ، وكان جاره . فكان محمد (صلعم) يقول أى جوار هذا يابنى عبد المطلب . فرآه يوما حمزة فاخذ العذرة وطرحها على رأس أبى لهب فجعل ينفضها عن رأسه ويقول صاحبي أحمق . واقصر عما كان يفعله

ومنهم الاسود بن يغوث وهو ابن خال محمد (صلعم) فكان اذا رأى فقراء المؤمنين قال لاصحابه مستهزئا هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى

وكان اذا لقى محمدا (صلعم) يقول له أما كلمت اليوم من السماء يا محمد فعاقبه الله بان خرج يوما من أهله فاصابه السموم فاسود وجهه فلما عاد الى أهله لم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب فرجع متحيرا حتى مات عطشا

ومنهم ركانة بن عبد يزيد الذى كان شديد العداوة للمسلمين ، وفى ذات يوم لقى محمدا فقال له. ياابن أخى: بلغنى عنك انك لست بكذاب ، فلنتصارع ، فان صرعتنى علمت أنك صادق ، وكان شديدا بحيث لم يصرعه أحد ، فصرعه محمد (صلعم) ثلاث مرات ، ودعاه الى الاسلام فقال لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة، فقال لها محمد أقبلى فاقبلت تخد الارض ، فقال ركانة مارأيت سحرا أعظم من هذا. مرها فلترجع فامرها ؛ فعادت فقال هذا سحر عظيم ولم يسلم

الى هنا شعر جـــد سلمى بالتعب فقطع الحديث وقال لارمانيوس وسلمى اذهبا الآن ياولدى واستريحا وعودا الى فى صبيحة الغد لأتمم لكما الحديث حيث أشعر الان بمزيد تعب ، فقاما وقبلا يد الشيخ ودعيا له بالصحة والبقاء وخرجا من باب غرفته الى البهو المؤدى الى خارج المنزل . وفى منتصف الطريق افترقت سلمى عن أرمانيوس وحيته تحية ماؤها العطف والحنان فاجابها بمثلها ومشى مطرق الرأس ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى شعر بيد وضعت على كتفه وقائلة تقول ملتقانا فى الحديقة بعد تناول الغداء ، فالتفت الى المتكلمة فوجدها زينب مربية سلمى ، فاشار اليها بالموافقة وسار فى طريقه إلى ان صار خارج المنزل ومنه إلى منزل الاضياف وفى حين دخوله وجده خاليا لا يوجد به سوي الخدم . فعلم أن الامير لم يعد من الخارج فدخل غرفته فوجدها أيضا خالية وقيس غير موجود فاضطجع فى فراشه يلتمس الراحة فانس بعزلته هذه واطلق لنفسه عنان الفكر خائضا فى بحار تلك الهموم التى تراكمت عليه وهى حب سلمى ومأمورية مولاه ، ومحبته للاهل والاوطان .

بقى أرمانيوس ساعة من الزمان سابحا فى تيار التاملات تتجاذبه العوامل الثلاث حتى تغلب عايه فى النهاية قوة الحب فصرعت ذلك القائد الباسل الذي طالما صرع الجيوش فصمم على الاقامة بالاقطار الحجازية حبا فى الوصول الى حبيبته سلمى.

و بينا هو كذلك اذ دخل قيس وسلم عليه وسأله عن حاله فشكره وقص عليه ماسمعه من جد سلمى ثم سأل قيسا قائلا: أين كنت الى الآن ؟ فاجابه إننى خرجت من المنزل وتجولت فى اسواق المدينة قليلا ثم ذهبت الى الكعبة فوجدت الناس مجتمعين زرافات و وحدانا فدخلت بينهم ونصت لحديثهم فوجدتهم يتكلمون عن قرب هجوم محمد (صلعم) على مكة ووجدت القوم فى خوف عظيم.

وفيما هما فى حديثهما اذ دخل عليهما عبد الأمير ودعاهما الى تناول الطعام فقاما ودخلا غرفة الطعام، فوجدا الامير ولفيفا من صحبه جلوسا على المائدة، فالقى أرمانيوس التحية وجلس بجانب الأمير وجلس قيس الى جانبه واخذوا يتناولون الطعام و بعد فراغهم منه، قام الامير ودخل دائرة الحرم، وذهب أصحابه الى منازلهم وقام أرمانيوس وقيس و ذهبا الى غرفتهما. وبعد دخولهما اضطجع قيس للاستراحة واستأذن منه أرمانيوس فى الخروج الى الحديقة محتجا بتحرير رسالة لمولاه القيصر. وخرج من المنزل الى الحديقة وجلس فى مكانه السابق ينتظر قدوم زينب

لم يطل انتظار ارمانيوس حتى وافته زينب وفى حين وصولها القت السلام وسألته عن صحته فشكرها ثم قالت.

وعدتنى أيها القائد الباسل النبيل ان تدلى برأيك الى بعد يومين من اجتماعنا الأول عن أمر بقائك بطرفنا ولكن حال دون اجتماعى بك مرض جدمولاتى الأميرة سلمى فهل لك الآن ياسيدى ان تدلى الى برأيك النهائى ؟

فاجابها بقوله: نعم. لقد فكرت كثيراً فوجدت ان لا مناص من الموافقة على الاقتران لذلك عزمت على البقاء مهما كلفنى ذلك .

فاجابته: شكرا لك أيها الشهم الهمام وثق ان هناك السعادة والهناء ما دام العقل رائدنا ، وكل صعب سيهون وسازف بشرى عزمك هذا الى سيدتى سلمى ثم ودعته ودخلت المنزل وسارت توا الى عرفة الاميرة سلمى وطرقت الباب فاذنت لها بالدخول. دخلت فوجدت الأميرة مطرقة تفكر وعلائم اليأس بادية عليها فحيتها وقبلت الارض بين يديها ثم وقفت متأدبة فنظرت اليها سلمى قائلة ماوراءك يازينب ؟ هل وفقت فى مهمتك ؟

فاجابتها نعم ياسيدتى لقد تم ما كنا نبغيه ثم القت اليها الحديث الذى دار بينها وبين ارمانيوس فانشرح صدر سلمى وزال ما به من شجن وحزن وقالت . اننى احمد الله على ماوفقك فى مهمتك وكلل مسعاك بالفوز والنجاح من جهة ارمانيوس . فما الذى ستعملنيه من جهة والدىَّ ؟

فاجابتها : لنترك الآن موضوع والديك الى فرصة مناسبة ولا بدلى من ان افكر فيه حتى انال من نجاحى فيه رضاك. ثم ودعت سيدتها وخرجت وبقيت سلمى وحدها منشرحة تعلل نفسها بالامانى .

غادرت زينب غرفة الاميرة سلمى واتجهت نحو الجناح الذى تقيم فيه الاميرة سعاد والدة سلمى ، وكانت تعلم ان الاميرة فى غرفتها منفردة وانها تتأهب للمنام لذلك تابعت السير الى ان وصلت الى الغرفة وطرقت الباب فسمعت الاميرة تأمر الطارق بالدخول . دخلت زينب فوجدت الاميرة جالسة على النمارق ومتكئة على الطنافس الحريرية فقبلت الارض بين يديها ودعت لها بدوام النعمة وطول البقاء .

فعجبت الاميرة لقدوم زينب فى مثل هذا الوقت اذ لم يكن من عادتها ذلك .

وقالت في نفسها لابد لزينب من حاجة دعت الى اتيانها فى هذا الحين . فبادرتها بالسؤال قائلة

ما وراءك يا زينب . وهل لك من حاجة ؟ فصمتت زينب ولم تنبس ببنت شفة فاعادت الاميرة السؤال وزادت بقولها . ما سبب حضورك هل لك من حاجة نقضيها لك ؟ فتنهدت زينب ثم قالت نعم يا مولاتى . اتيت اليك لتساعدينى على قضاء حاجة تختص بمولاتى الاميرة سلمى .

فبغتت الاميرة سعاد وقالت : قولى ماهى حاجة سلمى وكيف صحتها الآن؟ قالت: بخير يا مولاتى . ولكن الاميرة عاشقة

قالت عاشقة ! ماذا تقولين يا زينب ، تحب من ؟ وظهرت بوادر الغضب على وجهها . فاجابتها زينب حنانك يامولاتى أليست هى شابة . اليست هى الفتاة التى لم تتجاوز الثامنة عشر من عمرها اليس الحب ملاكا سماويا يخترق قلوب العذارى اليس لسيدتى سلمى قلب يشعر بطلب السعادة والهناء

قالت الاميرة : نعم لكل شابة ماتقولين ولكن عهدى بسلمى عدم الميل الى الزواج ولم أكن لانتظر منها الوقوع فى شرك الغرام . فكم أمير خطبها . وكم من شاب نبيل التمس الاقتران بها . فكانت كلما استشيرت اجابت بالرفض البات . فماذا دهاها الان . ومن هو ذلك الفتى الذى غلب حبه على قلبها . وكيف وصلت الى معرفته فاذا كان لك علم بذلك فاخبرينى لعلى اتدبر الامر .

فاخذت زينب تقص عليها قصة ارمانيوس ، وكيف تعرفت سلمى به ، وكيف تحابا ، وانها أى زينب كلمت ارمانيوس ولم تخف عن الاميرة شيئا .

فاستولى العجب على الاميرة وبدا على سيماها علائم الغضب . فشعرت زينب بذلك فارادت أن تقطع عليها تخيلاتها واسترسالها فى غضبها وخاطبتها قائلة

مولاتى : لا يأخذك العجب ، ولا يستولين عليك الغضب فان حبهما لم يتجاوز

الكلام . وانه حب شريف طاهر عفيف، وانه لا مناص من اقترانهما اذا لا سمح الله لم تأخذك الشفقة على سيدتى ولم تمدى لها يد المساعدة لنيل مقصدها فربما قضى عليها وتحرمين منها وتذكرى يا مولاتى انها ابنتك الوحيدة وانه لابد لها من الزواج فاذا هى اقترنت بمن تهواه امنت راحتها . ولم تزل تكلمها وتجتذب عطفها الى أن هدأت من روعها وزال مابها من غضب ووافقت على مشورتها ولكنها قالت .

اعلمى يا زينب ان ارمانيوس ليس بعربى ولا بأمير معروف ولست ادرى كيف يمكن ان يرضى الامير والدها وان من الصعب المستصعب ارضاءه

فاجابتها زينب ان بهمتك ياسيدتى تهون جميع المصاعب وان كل ارادة تضمحل تجاه ارادتك ولا اخال الامير الامقرا على ماترتئينه موافقا على ماتوافقين عليه . ففكرت الاميرة قليلا ثم اجابت :

اكتمى ذلك يا زينب . وسوف اتحين الفرصة المناسبة لمفاتحته فى ذلك وساتوسل بكل الوسائل لارضائه وعليك انت ان تكتمى امر حبهما عن كل انسان ومادار بيننا من الحديث ايضا كى نتدبر الامر فى جو هادىء حتى اذا خاطبت الامير واقنعته اعلمتك لتخبرى ارمانيوس بان يخاطب الامير و يطلب منه يد سلمى ثم امرتها بالانصراف . فقبلت زينب الارض بين يدى الاميرة وخرجت مستبشرة بخير ، ومن عظيم فرحها ذهبت الى الاميرة سلمى ودخلت عليها بلا استئذان وقصت عليها الحديث الذى دار بينها وبين الاميرة والدتها ورجت منها الكتمان فانشرح صدر سلمى لذلك ووعدت زينب بالمكافاة اذا هى نجحت فى مسعاها فشكرتها زينب وقبلت يدها وخرجت الى حال سبيلها

اما ارمانيوس فانه بعد مفارقته لزينب اخرج من جيبه القلم والقرطاس وكتب الى مولاه القيصر الرسالة الثانية محتوية على جميع ما سمعه من حديث جد سلمى ، ولما انتهى من الكتابة قام متجها الى دار الاضياف ، ودخل غرفته

فوجد قيسا لم يزل نائما فايقظه وجلسا يتحادثان فاطلعه على الرسالة التى كتبها الى مولاه وطلب منه ان يبحث عن قافلة ذاهبة الى الشام كى يرسل الجندى معها

فاجابه قيس هلم بنا الى الجندى تعطيه الرسالة وانا استصحبه الى فنادق مكة وارسله مع قافلة لانى اعلم انه لابد من وجود قوافل ذاهبة الى الشام الآن فقاما الى الغرفة التى بها الجندى ودخلاها فاستقبلهما الجندى بالاحتشام والاحترام فسأله ارمانيوس عن راحته . فشكر له ما يلاقيه من العناية الفائقة . فناوله الخطاب وعشرين دينارآ وأمره أن يسلم الخطاب ليد مولاه القيصر وأن يطيع قيسا فيما يامره به .

تركه مع قيس يجمع أمتعته ، وعاد الى غرفته فوجد أحد عبيد الامير يسأل عنه كى يذهب للرياضة صحبة الامير ، فذهب وركب مع الأمير وسارا الى خارج مكة . وفى أثناء الطريق سأله الأمير عن قيس فاعلمه بانه ذهب لأداء مهمة ومكثوا فى الرياضة زهاء ساعتين من الزمان ثم رجعا فتناولا العشاء وقيس لم يحضر وجلسا يتجاذبان أطراف السمر برهة انصرف بعدها الامير الى دائرة الحرم وانصرف أصحابه إلى منازلهم وقام ارمانيوس ودخل غرفته ينتظر قدوم قيس.

أما قيس فانه بعد ان جمع الجندى أمتعته خرج به من المنزل الى أحد الفنادق التى هى فى طريق القوافل الذاهبة الى الشام ولبث معه برهة ينتظران مرور قافلة ، فلم يوفقا ، فاضطر قيس إلى تركه فى الفندق وذهب وحده يفتش عن قافلة ، وبعد طول البحث اجتمع بقافلة مزمعة القيام إلى الشام بعد ساعة . فكلم رئيسها وأعطاه خمسة دنانير . ثم ذهب إلى الجندى وسار به وسلمه لرئيس القافلة ورجاه فى أن يسلمه إلى حاكم بصرى فاجابه بالسمع والطاعة .

وانتظر قيس مع الجندى ساعة إلى أن تحركت القافلة وبعدت عن ناظريه . فعاد إلى المنزل وفى أثناء عودته اشترى ما يسد به رمقه ووصل المنزل فى وقت

السحر دخل الغرفة فوجد ارمانيوس يقظا ينتظره . فساله عن سبب إبطائه فقص عليه حقيقة الحال فشكره على مروءته وتوسد كلاهما فى فراشه وناما .

وعند ما انفلق الاصباح قام ارمانيوس من منامه وتناول القهوة وفيما هو كذلك حضر خادم سلمى ودعاه للذهاب إلى غرفة جدها فقام وترك قيسا وذهب فى أثر الخادم ولما اقترب من باب الغرفة تأخر الخادم وتقدم ارمانيوس ودق الباب فامر بالدخول دخل فوجد الاميرة سلمى مع جدها في انتظاره فدنا من الشيخ وقبل يده وسأله عن صحته فشكره ثم تأمل ارمانيوس فى محيا الشيخ فرآه مكفهرا وعلائم التعب بادية عليه فعلم ان الشيخ قد الم به المرض ثم التفت الى سلمى وسلم عليها وجلس بجوار جدها وبعد جلوسه بدأ الشيخ حديثه بقوله



محمد

ﷺ

لقد علمتما يا ولدى كيف لقى اصحاب محمد صنوف الاضطهاد حتى اضطروا للهجرة الى بلاد الحبشة اولا وثانيا . وما اصابهم من المحن . والآن فاعلما انه بعد هجرة من هاجر من المسلمين بقى محمد (ﷺ) مقيما بمكة يدعو الناس الى دينه سرا وجهارا وقريش ترميه بالسحر والكهانة والجنون وتقول انه شاعر . اما هو فانه كان يقابلهم باللين ، ويعاملهم بالرحمة ، ويقارعهم بالحجة ، و يدعوهم الى دينه بالتى هى احسن ، والقوم فى غير اهتمام به الى ان سمعوا ان عمه حمزة دخل فى دينه وحمزة رجل شديد تهابه قريش لانه كان اعزهم واشدهم شكيمة وسبب اسلامه ان أبا الحكم ابن هشام (أبا جهل) مر بمحمد (صلعم) وهو جالس عند الصفا فآذاه وعاب دينه ، فلم يرد عليه ، ثم انصرف عنه ، وجلس فى نادى قريش .

وكانت مولاة عبد الله بن جدعان تسمع ذلك وهى فى مسكنها فلم تلبث أن رأت حمزة بن عبد المطلب وهو عائد من الصيد متوشحا قوسه وكان من عادة حمزة انه اذا رجع من الصيد لا يذهب الى اهله الا بعد ان يطوف بالكعبة ، فلما راته مولاة عبد الله قالت له

يا ابا عمارة ، لو رايت مالقى ابن اخيك محمد من ابى الحكم ابن هشام فانه سبه وآذاه ثم انصرف عنه ومحمد لم يكلمه . فغضب حمزة ومشى مسرعا يريد الطواف بالكعبة فدخل الحرم فرأى ابا الحكم جالسا مع القوم

فاقبل عليه وضربه على رأسه بالقوس فشجه شجة منكرة وقال له : اتشتمه وأنا على دينه أقول بما يقول ؟ فاردد علي ان استطعت . وهكذا اعتنق حمزة ديانة محمد (صلعم) واسلم وتأيدت به الدعوة المحمدية ثم لم يمض على اسلام حمزة الاثلاثة أيام حتى سمعت قريش باسلام عمر بن الخطاب وهو من أعظم رجال قريش وتأيدت به الدعوة المحمدية مزيد التأييد . وكان أصحاب محمد (صلعم) لا يقدرون على ان يصلوا عند الكعبة الى أن أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عندها وصلى معه أصحاب محمد (صلعم) .

وسبب اسلام عمر ان اخته فاطمة بنت الخطاب كانت زوجة لسعيد بن زيد بن عمر العدوى ، وكانا مسلمين يخفيان اسلامهما عن عمر ، وكان نعيم بن عبدالله العدوى قد أسلم أيضا وهو يخفي اسلامه ، وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن .

فخرج عمر بن الخطاب يوما ومعه سيفه يريد محمدا (صلعم) ومن معه وهم مجتمعون فى دار الأرقم عند الصفا فلقيه نعيم بن عبدالله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال له : اريد محمدا الذى فرق أمر قريش وعاب دينها فأقتله

فاجابه نعيم قائلا : والله لقد غرتك نفسك . اترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا (صلعم) افلا ترجع الى أهلك فتقيم أمرهم . فقال عمر وأى أهلي ؟ قال ابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة فقد والله اسلما . فرجع عمر اليهما . وعندهما خباب بن الارت يقرئهما القرآن فلما سمعوا صوت عمر تغيب خباب ، واخذت فاطمة الصحيفة التى تقرأ بها القرآن ، فخبأتها تحت فخذيها وقد سمع عمر قراءة خباب . فلما دخل قال ما هذه الهينمة ؟ قالا ما سمعت شيئا قال . بلى . قد أخبرت انكما تابعتما محمداً . وبطش بسعيد بن زيد فقامت اليه أخته لتكفه فشجها

فلما فعل ذلك قالت له اخته : قد اسلمنا وآمنا بالله و رسوله فاصنع ماشئت ولما رأى عمر ما باخته من الدم ندم وقال لها اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤن فيها الآن حتى انظر الى ما جاء به محمد (صلعم) قالت . انا نخشاك عليها فحلف أنه يعيدها . قالت انك نجس بيقائك على شركك ولا يمسها الا المطهرون فقام فاغتسل فاعطته الصحيفة وقرأها وكان قد كتب فيها (ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله) وكان عمر كاتبا . فلما قرأها قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمعه خباب خرج اليه وقال

ياعمر : اني والله لارجو ان يكون الله قد خصك بتأييد دعوة نبيه . فاني سمعته امس وهو يقول (اللهم أيد الاسلام بعمر بن الخطاب أو بابي الحكم ابن هشام) فالله الله ياعمر . فقال عمر عند ذلك . دلني ياخباب على محمد حتى اتيه فاسلم . فدله خباب ، فاخذ سيفه وجاء محمدا وأصحابه فضرب عليهم الباب فقام رجل منهم لينظر من بالباب فرأي عمر متوشحا سيفه فاخبر محمدا (صلعم)

فقال حمزة ائذن له فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان اراد شرا قتلناه بسيفه . فاذن له . ونهض اليه محمد (صلعم) فلقيه فاخذ بمجامع ردائه . ثم جذبه جذبة شديدة وقال ماجاء بك . ما أراك تنتهي حتى ينزل الله عليك قارعة فقال عمر يارسول الله: جئت لأومن بالله ورسوله فكبر محمد (صلعم) تكبيرة عرف بها من كان بالبيت ان عمر اسلم .

وهكذا — ياولدي — أخذ أمر محمد يعظم ودعاته يكثرون يوما أثر يوم ، بماينضم اليهم من القبائل فخشى الناس عاقبة ذلك ، واجتمع القوم وأتمروا على أن يكتبوا كتابا يتعاهدون فيه على بني هاشم وبني عبدالمطلب انلا ينكحوا اليهم ولا ينكحونهم ، ولا يبيعون اليهم شيا ولا يبتاعون منهم شيأ فكتبوا صحيفة

تعاهدوا فيها على ذلك وعلقوها فى جوف الكعبة . لكن مالبثت ان نقضت لانهم تعهدوها ذات يوم فاذا هى أكلتها الأرضة فتشاءموا من ذلك ولبثوا ينتظرون مايأتى به الزمان .

وبعد مدة توفيت خديجة وبعد وفاتها بخمسة وخمسين يوما مات أبوطالب فعظمت المصيبة على محمد (صلعم) بموتهما فكان يقول (مانالت قريش منى حتى مات أبوطالب) وذلك أن قريشا نالوا من محمد (صلعم) عندئذ مالم ينالوه من قبل فساموه ألوان الاضطهاد حتى كثيرا ما كانوا ينثرون التراب على رأسه ، ولم يتركوا بابا من باب الاذى الا ولجوه ، وكان كلما اشتد اذاهم له قال (اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون)

ولما أشتد عليه الحال خرج من مكة الى الطائف ومعه زيد بن حارثة يلتمس النصر من ثقيف القبيلة التى قضى زمان رضاعه فيها . فلم ينل خيرا بل كانوا يسبونه و يؤذونه و يعترضون له فى الطريق حتى ظنوه يرتجع ويترك دعوته ولكنه لم يزدد الاثباتا . وكان يذهب الى المواسم حيث تجتمع القبائل للبيع والشراء كموسم عكاظ وغيره فيبلغهم أنه رسول الله (صلعم) و يعرض عليهم الاسلام و يسألهم أن يحموه من أذى قومه . فكان منهم من يرده ردا سيئا ومنهم من كان يشترط عليه أن يكون لهم الامر من بعده فيقول لهم (أن الامر لله يجعله حيث يشاء)

ومازال هكذا الى أن لقى فى أحد مواسم الحج نفرا من الخزرج (أهل مدينة يثرب) فعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن وكانوا قد سمعوا من أهل الكتاب نبأه وانه سيرسل و يؤمنون به فقال بعضهم لبعض هذا هو الذى يوعدكم به أهل الكتاب لذلك أجابوه حينما دعاهم وآمن به ستة كانوا السبب فى أنتشار الاسلام بالمدينة حيث أنهم لما رجعوا إلى المدينة ذكروا لقومهم مارأوا ودعوهم

إلى الاسلام فاجابهم كثير وفشا الاسلام فى المدينة.

ولما كان العام الثانى ، وافى الموسم من أهل المدينة اثنى عشر رجلا من الذين آمنوا فقابلوا محمد (صلعم) وبايعوه على (الا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ، ولا يقتلوا أولادهم ولا ياتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وارجلهم، ولا يعصوه فى معروف) فسميت هذه البيعة البيعة الأولى وانصرفوا الى المدينة فارسل محمد (صلعم) معهم مصعب بن عمير ليؤمهم فى الصلاة التى علمها اتباعه ؛ وليقرئهم القرآن . لذلك نما الاسلام فى المدينة وازداد انتشارا . حتى اذا كان الموسم الثانى. قدم كثير من أهل المدينة ليأخذوا بناصره فخرج اليهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو غير مؤمن به ولا من اتباعه ولكنه صحب ابن أخيه ليحضر امره وليطمئن عليه . فلما أجتمعا باهل المدينة كان العباس أول متكلم معهم فقال لهم . أن محمدا (صلعم) مناحيث قد علمتم . منعناه من قومنا فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده . قد أبى إلا الانحياز اليكم واللحاق بكم . فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه وحافظونه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وأن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه . فقالوا لقد سمعنا ما قلت فنحن فداءه . فتلا محمد (صلعم) عليهم شيئا من القرآن ودعا الله ثم بايعهم قائلا (ابايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه انفسكم ونساءكم واولادكم) فبايعوه على هذا وتسمى هذه البيعة بيعة العقبة

وفشا الخبر فى قريش فجاءوا اهل المدينة قائلين بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا محمد لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا وانه والله مامن حى من العرب ابغض الينا ان تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . فاجابهم قائل ممن لم يحضر بيعة العقبة بقوله ان هذا الامر لجسيم . وما كان قومنا ليقوموا علينا بمثله وماعلمناه كان فلما سمعوا منهم ذلك انصرفوا عنهم

ولما نفر الناس من منى تحسست قبائل مكة الخبر فوجدته صحيحا فلحق فريق منهم اهل المدينة فلم يدركوهم بل ادركوا اثنين فرّ احدهما وامسكوا بالآخر وهو سعيد بن عبادة فارجعوه معهم الى مكة واستعملوا معه انواع الفظاعة فاستغاث برجلين كان له عليهما يد. فلما ناداهما جاآه فخلصاه فانطلق راجعا الى المدينة

على هذا النحو - ياولدىّ - كانت قريش تأذى محمدا (صلعم) وتضيق الخناق عليه وعلى اصحابه وكان حذرهم شديدا من ان يفلت منهم علما بانه اذا سار الى المدينة تايد بانصاره واصحابه وقويت شوكته فيوقع بهم كما أوقعوا به لذا فكروا بان يتخذوا ازاءه أمرا حاسما، واجتمعوا بدار الندوة التى شادها قصى بجانب الكعبة لتكون مجمعا للمشاورة وتفاوضوا فيماذا يفعلون فقال بعضهم لبعض: ان هذا الرجل قد كان من امره ماقد رأيتم فاجمعوا فيه أمرا. فقال بعضهم اسجنوه واغلقوا عليه الباب فاجاب آخر قائلا. والله ماهذا لكم برأى لئن حبستموه ليخرجن امره من وراء الباب الى اصحابه فيثبوا عليكم فينتزعوه من ايديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على امركم.

فقال بعضهم. ننفيه من بلادنا ولانبالى اين ذهب فاذا غاب وفرغنا منه اصلحنا أمرنا. فرد عليه آخر قائلا: ألم تروا الى حسن حديثه وطلاوة منطقه واستيلائه على قلوب الرجال والله لوفعلتم ذلك ماامنتم ان يحل بحى من العرب فيغلب على قلوبهم بذلك فيبايعوه ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم فى بلادكم فياخذ امركم من أيديكم ثم يفعل بكم ماأراد.

قال ابو جهل: أرى ان نأخذ من كل قبيلة فتى نعطيه سيفا وان يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر

بنو عبد مناف على المطالبة بدمه ولا على حرب قومهم جميعا

فوافق هذا القول رأيهم جميعا وجاوءا برجال من جميع القبائل وساروا جميعا خلسة حتى اتوا منزله وتربصوا له ريثما ينام اما محمد (صلى الله عليه وسلم) فانه شعر بنية القوم فامر على بن أبي طالب ان يبيت فى مكانه ، وان يرتدى بردائه ، وخرج هو يخترق القوم الذين رصدوه ليوقعوا به ، وقد ظنوه سواه. فاخترقهم وحثا على رؤسهم التراب فدخلوا على النائم فوجدوا عليا نائما فى فراشه مرتديا بردة محمد (صلعم) فظنوه اياه حتى اذا قام عليٌ وعرفوه تبين لهم فشلهم اما محمد فانه ذهب الى بيت عبد الله بن ابى قحافة (أبى بكر) وكان ذا مال وكان يطمح ان يهاجر صحبة محمد فخرج الاثنان معا يريدان المدنية. فعرجا فى اثناء سفرهما الى غار بجبل ثور اسفل مكة فاقاما فيه ثلاث ليالى. وكانت قريش قد اهمها الامر فجعلت لمن يدل عليهما مائة ناقة ، وتفرقوا فى السبل لعلهم يدركونهما ولكنهم عادوا بخفى حنين.

اما محمد وصاحبه فانهما بعد مكثهما ثلاث ليال بالغار جاءهما الدليل براحلتين وساروا يقصدون المدينة ووصلوا قباء يوم الأثنين لاثنى عشر خلت من ربيع الأول. وبنى محمد (صلعم) وهو فى قباء مسجدا وصلى فيه بمن معه. ثم برح قباء الى المدينة ، فدخلها واهلها محيطون به وهم متقلدون سيوفهم وسروا برؤيته كل السرور ، وخرج لملاقاته فيمن خرج النساء والصبيان. ثم لحقه من كان باقيا بمكة من أتباعه الى المدينة وهناك نصره الذين هاجروا معه وأهل المدينة الذين دعاهم بالأنصار وهم جنده اليوم مع من انضم اليهم من القبائل.

وأول عمل بدأ به محمد (صلعم) بالمدينة أنه بنى مسجدا وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين فى العمل ؛ وفيها شرع الأذان ليجتمع الناس اذا حان وقت الصلاة

وكان كثيرون من اليهود يقطنون بالمدينة فلما عاينوا رسوخ قدم الاسلام بها تحركت فيهم عوامل الحسد وتحزبوا على المسلمين فعقد محمد (ﷺ) معهم عقدا على أن يتركوا أذاه ويترك هو محاربتهم .

ثم بدأ محمد (صلعم) يجمع جيوشه ويحارب قريشا فحاربهم عند بدر وقتل كثيرا من أشرافهم فسارت اليه قريش فى ثلاثة آلاف محارب أخذا بثأر من قتل من أشرافهم يوم بدر . فجمع محمد تسعمائة رجل وتقابل الفريقان عند جبل أحد فقتل كثير من المسلمين لمفارقتهم مواقفهم واشتغالهم بالغنائم .

وفى السنة الرابعة من الهجرة تهيأت بنو محارب وبنو ثعلبة لمحاربته فخرج اليهم ومعه سبعمائة مقاتل فهرب الخصوم وتركوا نساءهم وفى هذه السنة رفع المسلمون راياتهم .

وفى السنة الخامسة حرضت قريش القبائل على محمد (صلعم) فاجتمع عدد عديد منهم وساروا الى المدينة وحاصروها . ولكن المسلمين كانوا حفروا حولها خندقا ، فلم تستطع القبائل دخولها . ولما طال مكثهم بلا فائدة اختلفوا فيما بينهم فهبت عليهم ريح عاصفة فشتت شملهم وعادوا من حيث أتوا . فسميت هذه الغزوة غزوة الخندق .

وفى السنة السادسة خرج محمد (صلعم) معتمرا فى ألف وأربعمائة رجل سيوفهم فى أغمادها ، فجمعت قريش الجموع لتصدهم عن البيت الحرام ولم تقع الحرب بل حصل بين الفريقين مايدعى صلح الحديبية .

وفى السنة السابعة أراد محمد (صلعم) أن يؤدب اليهود لاشتراكهم مع أعدائه فى حصار المدينة . وكانوا قد تعهدوا بالتزام الحيدة فغزاهم فى بلادهم خيبر وفتحها وغنمت جيوشه منها غنائم عظمى .

فهذه - ياولدى - مختصر أخبار محمد (ﷺ) منذ طفولته الى يومنا هذا

اذ لو أردت أن أعدد لكما مناقبه ومحاسنه بالتفصيل لما انتهيت من ذلك فى عامنا هذا . وهانحن الآن في العام الثامن من الهجرة وكل يوم تتواتر الأخبار وتشيع الاشاعات بانه سيقدم الى مكة ويغزو قريشا فى معقلهم ويهدم الأصنام وإننى أطلب من الله إن كانت دعوته صحيحة أن يتوفانى على دينه .

ولم يكد جد سلمى ينتهى من حديثه الى هذا الحد حتى بدت علائم التعب عليه وأخذ يشتد حتى اصفر لونه وتلعثم لسانه وأغمى عليه . فارتاعت لهذا المنظر المروع سلمى وصرخت صراخا سمعه خادم جدها ومربيتها زينب التي صادف مرورها فقدما يسرعان لينظرا ما الخبر .

اما أرمانيوس فانه دنا من الشيخ وحل له ازرار قميصه وأخذ يفرك له يديه وجبينه . وفى اثناء ذلك دخل خادم الشيخ وزينب فطلب أرمانيوس منهما ان يأتيا بشيء من المنعشات كماء الورد . فذهب الخادم واتى له بما طلب فى سرعة البرق فصار أرمانيوس ينشقه منها حتى دبت فيه الروح وافاق من اغمائه فنظر إلى سلمى نظرة الأب الشفوق والى أرمانيوس ثم خاطب سلمى قائلا أي بُنَيَّتي العزيزة انى اشعر بدنو الاجل فاذهبي وأتيني بوالديك لاراهما قبل الوفاة فاغرورقت عين سلمى بالدموع وأخذت تنظر إلى جدها ثم اجهشت بالبكاء والقت بنفسها عليه تقبل رأسه ويديه قائلة لا بأس عليك ياجدى.

فاجابها . أى بنيتى كفكفى الدمع فاذهبي وأتينى بوالديك اذ لافائدة من انتحابك . اذهبي ولا تبطئى

ذهبت سلمى ومعها زينب الى غرفة والدتها وطرقتها فأمرت بالدخول دخلت فوجدت والدتها جالسة تفكر . فقبلت يديها واعلمتها بما وقع لجدها وانه يريد ان يراها . فانزعجت الاميرة وقامت من فورها تسرع الى غرفة الشيخ ومن ورائها سلمى وزينب وفى أثناء سيرها امرت الخدم بان يذهبوا الى منزل

الاضياف ويعلموا الامير زهيرا بالامر وان لم يجدوه فتشوا عنه فى الحرم . ثم واصلت السير الى ان وصلت غرفة الشيخ فوجدته مضطجعا مغمضا عينيه وقلبه فى خفقان . ورأت فى زاوية الغرفة أرمانيوس جالسا وهو مطرق الرأس يفكر وقد سقط عن رأسه عقاله وكوفيته فظهر شعره الذهبي الطويل وبدت ملامح جماله . فدنت سلمى من جدها ونادته بصوتها الرخيم . جدى . جدى . ان والدتى قد حضرت وسيحضر والدى فان الخدم ذهبوا يبحثون عنه . ففتح عينيه ونظر اليهم جميعا ثم قال . أتونى بولدى زهير بلا بطء . ثم غمض عينيه وجلس الكل وكأن على رؤسهم الطير ينتظرون قدوم الامير زهير .

اما الخدم الذين ارسلتهم الاميرة ليفتشوا عن الامير فانهم ذهبوا الى منزل الاضياف فوجدوه غائبا فذهبوا الى الكعبة وسالوا بعض أصحابه فدلهم على مكانه فاتجهوا نحوه الى ان رأوه جالسا بين لفيف من اصحابه . فتقدم واحد منهم اليه وقبل الارض وأعلمه بان الامير والده يطلبه وهو فى حالة المرض فقام الامير من فوره وركب جواده وجد مسرعا الى منزله ووراءه الخدم . وصل المنزل فتقدم بخطى واسعة نحو الجناح الذى يقيم فيه والده فوصل الغرفة دخل الغرفة فوجد الاميرة سلمى وسعاد والمربية زينب وأرمانيوس الجميع فى حالة يرثى لها ووجد والده فى حالة غيبوبة فتقدم منه واخذ يده بين يديه وصار يقبلها و يناديه قائلا: والدى. والدى

انتبه الشيخ وفتح عينيه ونظر الى ولده وعلائم السرور بادية على محياه . ثم طلب منهم بصوت خافت ان يضعوا المساند وراء ظهره . فبكل سرعة وضع أرمانيوس المساند . فنظر اليه الشيخ نظرة تنم عن الشكر ثم التفت الى الامير قائلا .

زهير . زهير . ولدى . انى مفارق هذه الدنيا فاوصيك باهلك خيرا سيما

سلمى وبان تكون اعمالك قدوة حسنة لعموم القبائل وأياك ان تطيع الجهلة من قريش وتقاتل معهم جيوش محمد اذا ارادوا الدخول الى مكة فكن بين أمرين. إما الايمان به. واما المهاجرة الى اليمن. ثم التفت الشيخ نحو سلمى قائلا. وانت أي بنيتي اقتربي مني فاقتربت ثم نادى أرمانيوس فاقترب منه. فوضع يد أرمانيوس بيد سلمى وخاطب الامير زهيرا والاميرة سعاد بقوله. اقتربا ايها الولدان الكريمان وباركا معي قران هذين القرينين المباركين لان كلاهما يليق بصاحبه. وانت يازينب كوني شهيدة على ذلك والله خير الشاهدين

فبغت الامير زهير والاميرة سعاد من تلك المفاجأة ونظر كلاهما الى الآخر فقاطعهما الشيخ بقوله: لا ينظرن بعضكما الى البعض هذه أرادة الله وارادتي فاقتربا وباركا زواجهما.

حينئذ تجاه اصرار الشيخ لم يسعهما الا الامتثال لامره فتقدما من سلمى وأرمانيوس وباركا لهما. فانشرح صدر الشيخ وقال: الحمد لله الذي وفقني للجمع بين هذين القلبين قبل أن أموت وأنا الآن اسلم الروح مستريحا ومد يده تحت فراشه واستخرج علبة صغيرة فتحها واخرج منها قرطا من اللؤلؤ لا يوجد الا في خزائن الملوك واعطاه لسلمى وأوصاها بان تحتفظ به. ثم ارتجف ارتجافا قليلا وسقطت الوسادة من تحت رأسه فمال واسلم الروح بين يدي أرمانيوس وسلمى

فبكى الجميع وأحنوا الرؤس اجلالا لملك الموت ثم خرجوا فذهب الامير لمنزل الاضياف وامر بالتجهيز لموارة والده وذهب معه أرمانيوس وهو منشرح الصدر مسرور الفؤاد. ولم ينقض المساء حتى دفن الامير زهير والده في احتفال مهيب مشى فيه رؤساء القبائل وعلية القوم وبعد مواراته التراب رجع الامير الى منزله ونحر البقر والشياة وأقام المأتم ثلاثة أيام أطعم فيها الفقراء والمساكين وبعد انقضاء ليالي المأتم رجع الى جاري عادته من الذهاب الى الكعبة والعودة

الى المنزل وما الى ذلك . وأما ارمانيوس فانه أعلم قيسا بجميع ماتم من زواجه بالاميرة سلمى وانتظاره مرور الاربعين على وفاة جدها ليزف اليها . فانقبضت نفس قيس .وقال .

ان نفسي ياصديقي انقبضت لأن فى زفافكما عدم العودة الى الاوطان ولكننى ربما عدت . أما انت فلم يعد فى استطاعتك العودة . ومما يحزننى أن أتركك وحدك فى هذه البلاد وهى على أهبة الحرب والقتال .

فاجابه أرمانيوس بقوله لا تحزن ياصديقى ولا تهتم اذ لا علم لنا بما يأتى به الغد . أما من جهة كون البلاد على أهبة الحرب فانى انما خلقت للحروب وأما البعد عن الوطن والعشيرة فهذا هو الذى يؤلمنى كما يؤلمك .

وفى هذه اللحظة دخل الخادم ودعاهما للخروج صحبة الامير خارج مكة وكانا من يوم وفاة والد الامير لم يخرجا الا في هذا اليوم فقاما من فورهما وخرجا صحبة الأمير ثم رجعا فى المساء وحين دخولهم المنزل قابل أحد الخدم أرمانيوس وأعلمه بعودة خادمه من سفره .

فبغت أرمانيوس وذهب الى الغرفة فوجد الجندى الذى أرسل معه الرسالة الأولى للقيصر فسأله عن حاله وعن سبب مجيئه فقال ان الامبراطور هو الذى أمرنى بالرجوع وارسل معى اليك هذا الخطاب وناوله إياه ففضه وتلاه فوجده كتاب شكر وحث على مواصلة البحث ثم قدم الجندى لمولاه صندوق الجواهر فاخذه أرمانيوس وفتحه ونظر الى ما فيه فسر سرورا بليغا وشكر الله على ذلك لان هذه الجواهر وصلت فى الوقت الذى تلزم فيه حيث يهديها الى الاميرة سلمى ثم سأل الجندى عن أحوال الاصدقاء فقال انهم بخير يهدونه التحية والسلام .

أمر أرمانيوس الخدم بتهيئة اسباب الراحة للجندى ورجع الى قيس وأطلعه على خطاب القيصر والجواهر التى أرسلها ثم خاطبه قائلا :

أحمد الله على أن ارسل القيصر الجندى اذ يتاح لى ان ارسل الرسالة الثالثة اليه اذن وانى لأتمنى من صميم فؤادى أن ارى محمدا وجيوشه يفتحون مكة ويهدمون أصنامها . فأجابه قيس لقد رأيت فى مكة حركة شديدة واستعدادات قائمة على ساق وقدم واشاعات تنذر بقرب هجوم محمد (صلعم) على مكة .

وفيما هما فى هذا الحديث اذ دخل الخادم ودعاهما لتناول طعام العشاء فقاما وذهبا الى غرفة الطعام وتناولا عشاء هما و بعد ان قضيا هنيهة من الزمن ذهبا الى غرفتهما إبتغاء المنام وتوسد كل منهما فراشه وناما ينتظران ما تاتى به الايام

القيصر ورسالة أرمانيوس الثانية

هذا ما كان من أرمانيوس وصاحبه . أما ما كان من أمر الجندى الذى ذهب بالرسالة الثانية فأنه سار مع القافلة حتى وصل الى بصرى وقابل الحاكم واعلمه بان لديه رسالة الى القيصر فارسله الحاكم مع رسول وسارا قاصدين القيصر وكان القيصر وقتئذ بالقرب من حمص ولم يزالا سائرين الى ان وصلا الى إيلياء فدخلاها وعلما ان الامبراطور موجود بها فذهبا توا الى مقره .

وكان الامبراطور منذ ارسل الجندى الذى اتاه بالخطاب وهو منتظر خطاب أرمانيوس على احر من الجمر فدخل عليه الحاجب واعلمه بقدوم رسول من قبل حاكم بصرى ومعه جندي يحمل خطابا . فامره بادخالهما فدخلا وقبلا الارض وتقدم الجندى الى مولاه واعطاه الرسالة ففضها ووجدها من أرمانيوس فامرهما بالخروج وأخذ يقرأ الرسالة بكل امعان مرارا وتكرارا ثم امر الحاجب بادخالهما فدخلا فانعم على رسول حاكم بصرى وأمره بالعودة الى بلاده . ثم انعم على الجندى وأمره بالانصراف الى بلاده .

واخذ هو يفكر و ينظر فى النجوم و يراجع ما عنده من الكتب وفى ذات

يوم اصبح متوعكا متكدر النفس . فقال له بطارقته لقداستنكرنا هيئتك . فقال لهم : انى رأيت الليلة وانا أنظر فى النجوم ان ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الامة ؟

فقالوا له ليس يختتن الا اليهود فلا يهمك شأنهم واكتب الى مدائن ملكك يقتلون من فيها من اليهود . و بينما هم فى هذا الحديث اذ أتاهم رجل من قبل ملك غسان يخبر عن محمد (صلعم) فلما استخبر هرقل قال اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا . فنظروا اليه فوجدوه مختتنا وساله عن العرب فقال أنهم يختتنون فقال هرقل هذا ملك هذه الامة قد ظهر ثم كتب ثانيا الى صاحبه برومية وهو لا يقل عنه علما يساله رأيه وسار هرقل الى حمص فلم يصل حمصا حتى اتاه كتاب من صاحبه يقر رأيه على خروج النبى محمد (صلعم) فاذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص ثم أمر بابوابها فغلقت ثم طلع وقال :

يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم . بايعوا هذا النبى فحاصوا حيصة حمر الوحش واتجهوا الى الابواب فوجدوها قد أغلقت . فلما رأى هرقل نفرتهم وآيس من ايمانهم قال ردوهم علىّ فردوهم فقال :

انى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم فى دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ورضوا عنه . فكان هذا آخر شان هرقل مع عظماء مملكته بخصوص هذا الامر . وأخذ ينتظر الرسالة الثالثة الذى وعده أرمانيوس بارسالها أو باحضارها بنفسه .

هذا ما كان من شان هرقل عظيم الروم وأما أرمانيوس فانه لبث مقيما عند الامير زهير ومعه قيس يلتمس انتهاز الفرصة لمخاطبة الامير فى أمر زفافه الى عروسه . مضى على ارمانيوس أيام غير قلائل بعد وفاة جد سلمى وهو مكرم عند الامير زهير كما كان سابقا بل زاده الامير احتراما وصديقه قيسا . كل ذلك وارمانيوس مضطرب البال عظيم البلبال من جهة حبيبته . وعلى الاخص بعد

أنقطاعها عنه بسبب ماتم له بخطبتها و بينماهو مختل بصدبقة قيس فى ذات مساء قال له: لا أخفي عنك انى سئمت الانتظار واود أن يقرب الله يوم الزفاف ليستريح مني البال وانني قد اجمعت الرأى على ان اقابل الامير صبيحة الغدو اقدم له الجواهر باسم ألاميرة فتكون هدية و تذكرة بامر الزفاف فى وقت واحد.

فاجابه قيس: لتفعل ما تراه صالحا نجح الله مساعيك ثم اضطجعا للنوم وفى الصباح بكر ارمانيوس بالنهوض وتناول القهوة وقال للخادم الذى اتى له بها بلغ ألامير قبل مزايلته المنزل انى اريد مقابلته. فلبي الخادم الامر وذهب.. وجلس ارمانيوس منتظرا رجوعه.

اما الخادم فانه بقى منتظرا الى ان نزل مولاه فابلغه ان ارمانيوس يريد مقابلته فعدل عن الخروج وعرج على قاعة الجلوس وأمر الخادم أن يذهب الى أرمانيوس ليبلغه انه فى انتظاره. وذهب الخادم إلى ارمانيوس وأبلغه انتظار ألامير اياه. فقام وحمل معه صندوق الجواهر وسار الى أن دخل القاعة فالقى التحية فرحب به ألامير وأجلسه بجانبه وساله عن صحتة فشكره ارمانيوس. ثم قال:

مولاى: لقد دعانى الى طلب مقابلتكم انى ازمعت التجاسر بتقديم هدية الى الاميرة سلمى، وان تكن غير لائقة بمقامها الا ان كرم شيم ألامير يغريه بقبولها ورفعها الى الاميرة. وعند ذلك قدم ارمانيوس الصندوق الى الأمير فتقبله ألامير وشكره قائلا: ايها الضيف العزيز بل الصهر الكريم انى منذ يومين وانا افكر بليلة الزفاف تنفيذا لوصية المرحوم والدى ولكن سوء الحالة فى مكة والاشاعات الشائعة عن قرب هجوم محمد (صلعم) عليها حال دون الاسراع ولكن على كل حال لابد من التنفيذ القريب العاجل.

فقبل ارمانيوس يده وشكره على عطفه الأبوى وقام الاثنان فاعطى

الامير الصندوق الى أحد الخدم ليحمله الى ألاميرة وذهب هو الى الحرم اما أرمانيوس فانه رجع الى غرفته فوجد صديقه قيسا قد استيقظ من نومه فقص عليه مقابلته للأمير فسر قيس سرورا عظيما ثم قام الصديقان وخرجا الى اسواق مكة ليتنسما الأخبار .

أما الخادم الذي استلم الصندوق فانه دخل دائرة الحرم فقابل عبد الاميرة سلمى فاعطاها الصندوق ثم قفل راجعا . أما عبد الاميرة فانه سار الى غرفة مولاته ولم يكد يدنو منها حتى قابل زينبا وهى داخلة على سيدتها فاعطاها الصندوق قائلا ان ألامير ارسله الى سيدتى بصحبة احد العبيد .

اخذت زينب الصندوق ودخلت به على مولاتها فوجدت الاميرة جالسة على اريكة ومتكئة على نمرقة وغريقة فى بحر التفكير فتقدمت زينب و قبلت الارض ثم قالت :

مولاتى : ان مولاى ألامير ارسل اليك بهذا الصندوق وقد سلمنى أياه الخادم ثم ناولتها الصندوق فتناولته ونظرت اليه فوجدته أعجوبة من الفن . وهو من الفضة الخالصة ذو نقش بديع وقفل صغير من الذهب الى جانبه سلسلة ذهبية دقيقة يتفرع منها خمس سلاسل فى كل واحدة منها حجر من الياقوت الاحمر الا الخامسة فانها قد علق بها مفتاح دقيق من الذهب .

عجبت سلمى لدقة صنع الصندوق ثم تناولت مفتاحه و فتحته فبهرها ماعاينته من الجواهر الثمينة من خواتم وعقود وسلاسل من الذهب المرصع بالالماس فى صنعة تحير الالباب فبهتت مما رأت ثم خاطبت زينبا قائلة :

اقتربى منى يازينب وانظرى الى هذه الحلى الرائعة . عجبا من أين أتى بها والدى . فاقتربت زينب ولم يكد يقع بصرها على الجواهر حتى كانت أكثر دهشة

وقالت: ليت شعري من أين أتى بها مولاى الامير فهلمى بنا نذهب الى سيدتى فنطلعها عليها .

فقامت الاميرة سلمى تمشي ومن ورائها زينب حتى وصلن غرفة الاميرة سعاد . طرقن الباب فامرن بالدخول فدخلت سلمى ومن ورائها زينب وتقدمت من والدتها وقبلت يدها فقبلتها الاميرة من جبينها ثم تقدمت زينب وقبلت الارض ووقفت على بعد فخاطبت سلمى والدتها قائلة : أنظرى ياوالدتى ماأرسله والدى الىّ . وناولتها الصندوق فتناولته الاميرة ونظرت اليه فعجبت من صنعته ثم فتحته فبهرها مابه من جواهر ثمينة نادرة المثال وأخذت تسائل نفسها عمن أرسله الى الامير فلم يهتد فكرها اليه . ولذا وطدت العزم على سؤال الامير عن ذلك ثم هنأت ابنتها بتلك الهدية الرائعة البديعة وتمنت لها السعادة .

فقامت سلمى وقبلت يدها وهمت بالانصراف فاوقفتها قائلة : اعلمى ياسلمى إننى ووالدك فى مساء أمس كنا فى حديث زفافك إلى أرمانيوس وقد التمست من والدك أن يعمل على تقريب يوم الزفاف حسب وصية جدك فوجدته ذا رغبة شديدة . ولكن الاضطراب الموجود بمكة حال دون الاسراع ومع ذلك سنتفق على اجراء الزفاف فى عاجل الايام . فانشرح صدر سلمى وأبدت مزيد الامتنان وانصرفت تحمل صندوق جواهرها إلى غرفتها ومن ورائها زينب وعند مادخلت أمرت زينب باغلاق الباب واقتربت منها قائلة : انى وعدتك يازينب بالمكافاة عندمايتم أمرالزفاف ، والآن ولله الحمدقد اجتزنا جميع المراحل بحسن تدبيرك ، وفضل المرحوم جدى ومابقى الاالقليل فثقى بالوفاء وأن وعدى أياك مابرح ماثلا ببالى ، وأنى سوف أنفذه عماقريب

فاجابتها زينب قائلة : أن بغيتي يامولاتى هى رضاك ، وأنى منذ وفاة جدك

وأنا اقابل والدتك ارجوها فى أمر التعجيل بالزفاف وقد قابلتها مرارا وكنت فى كل مرة أراها مهتمة بالامر مبدية سرورها بان الامر عرض على والدك من قبل جدك فجاء من السهولة بحيث صارت والدتك تفاتح كل يوم الامير بهذا الشان ولم تزل زينب تحدث سيدتها سلمى عن قرب يوم الزفاف حتى حان وقت الغذاء فانصرفت .

أما أرمانيوس وقيس فانهما عادا الى المنزل وقت الظهيرة وقد أنهكهما التعب من كثرة التجوال بانحاء مكة وعند وصولها وجدا الامير عاد مبكرا فى هذا اليوم على خلاف العادة ولم يمض على وصولهما الا القليل حتى دعاهما الخدم لتناول الطعام فقاما وتناولا غذاءهما مع الامير حسب العادة وبعد الانتهاء من أمر الغذاء عادا الى غرفتهما للاستراحة .

أما الامير فانه دخل دائرة الحرم وذهب الى غرفة الاميرة سعاد فوجدها جالسة ، فقامت لاستقباله ثم جلسا يتحدثان عن أرمانيوس وسلمى فقال الامير هل رأيت يا سعاد هدية أرمانيوس لسلمى ؟ فيا لها من جواهر نادرة قليلة المثال .

فاجابته نعم : رأيتها الا اننى لم أعلم أنها من قبل أرمانيوس فقص عليها الامير كيف قابله أرمانيوس فى صباح اليوم والحديث الذي دار بينهما . فسرت الاميرة بذلك وقالت : أذن يجب علينا أن نخبر سلمى بان الهدية من خطيبها وفى الحال نادت الاميرة أحد الخدم وأمرته بالذهاب لاستدعاء سلمى ، فذهب الخادم وأبلغ الاميرة أمر والدتها قائلا أن الوالد فى أنتظارك فقامت من فورها وعند دخولها عليهما قبلت يد الامير ، ووقفت متادبة فى حضرتهما فامرها بالجلوس فجلست . فقال الامير هل أنت مسرورة بالهدية ياسلمى ؟ فاجابته : نعم أى والدى العزيز . كيف لا وهى هدية والد شفوق الى ابنة تتفانى فى حبه .

فقال الامير : ولكن يابنتى أن الهدية من أرمانيوس فهل أنت مسرورة
فخامر سلمى مزيد فرح وارتبكت فى الاجابة ثم قالت إن الذى يسر والدى
يسرنى . فقال الامير :

اعلمى - أى بنيتى - انه نزولا على ارادة المرحوم جدك قررت مع والدتك
الاحتفال بزفافكما بعد ثلاثة أيام ، وسأصدر الأوامر الى الخدم بان يقيموا
الزينات ، ثم قام ذاهبا الى غرفته . أما سلمى فانها قبلت يد والدتها وذهبت الى
غرفتها وهى لاتصدق أفى حلم هى أم فى يقظة .

دخلت سلمى غرفتها وأمرت باستدعاء زينب وسرعان ماحضرت فاعلمتها
بالأمر فشاطرت مولاتها السرور وشاركتها فى عواطفها . هذا ما كان من أمر
سلمى . أما الامير فانه بعد ان أخذ قسطا من الراحة خرج الى دار الاضياف
واصدر أوامره الى الخدم باعداد الزينات ، وكان أصحابه وأرمانيوس ينتظرونه
فى غرفة الاستقبال واعلن لهم خطبة الاميرة سلمى الى ضيفه العزيز أرمانيوس
ثم عرفهم بشخصيته . فقام الحضور جميعا وصافحوا أرمانيوس مهنئين له بعروسه
ومتمنين له عيشة هنية . ثم ساروا مع الامير يقصدون النزهة خارج مكة ،
وأرمانيوس وقيس معهما و بعد ان تنزهوا قليلا عادوا فوجدوا الخيام قد نصبت
حوالى البيت والزينات اقيمت وكثيرين من عامة العرب حضروا وكثيرين
من الشعراء ، وأهل المديح ، فامر الامير بذبح الشياة والجمال واطعام الفقراء وخلع
على الشعراء وشاع الخبر فى جميع حلل العرب فطفق الناس يحجون الى بيت
الامير ، ولم يمض اليوم الاول حتى نحر الامير من الشياة وذبح من الجمال
ماشاء الله . وفى اليوم الثانى تزايد الازدحام وتضاعف عديد القادمين ، والامير
يوزع الصدقات ويطعم الفقراء .

فتح البيت الحرام

انقضى اليومان الأولان فى سرور وهناء، وأصبحوا فى اليوم الثالث ولم يكد ينتصف النهار حتى وافتهم الاخبار بان فى مكة حركة غير عادية، وان بعض رجالات قريش يتأهبون للحرب لورود الانباء بان جيوش محمد (صلعم) صارت على مقربة من ممر الظهران، فانقلب الفرح الى ضوضاء وأمر الامير بقتويض الخيام وانزال الزينات، وكان ذلك. ولم يعد للافراح اثر، واختلى الامير باصحابه فعرضوا عليه التأهب للقتال فرفض طلبهم واطلعهم على وصية والده فانصرفوا الى منازلهم وبقى الامير وأرمانيوس وقيس وحدهم.

بعد هنيهة دخل الامير دائرة الحرم وأخبر زوجه وابنته بما سمع وما قد وقع واعلمهما بانه لا خوف عليهما وانه لن يغادر المنزل ثم لبس سلاحه وقال لهما انه سيجلس بدار الاضياف يتنسم الاخبار، ثم امر العبيد بان يلبسوا اسلحتهم ويكونوا على اتم استعداد اذا حصل تعد على المنزل وخرج الى دار الاضياف وأمر الخدم أيضا بتقلد السلاح وجلس ينتظر ما تأتى به الأخبار.

اما أرمانيوس فانه بعد ان نظر الاستعدادات التى اقامها الامير وجد في نفسه الاطمئنان فاستاذن الامير فى الذهاب الى الخارج ليطلع على ماجريات الامور وينظر الى حروب العرب فلم يمانع الامير ولكن أوصاه بالابتعاد عن المتقاتلين، وعز على الامير خروجه ولكنه خشى ان يظن به الجبن وهو منه برىء ولولا وصية والده لما تاخر عن الخروج لحظة من الزمان. قام أرمانيوس وتبعه قيس فخرجا الى اسواق مكة فرأيا اهلها فى قلق شديد فسألا ما الخبر؟ فقيل لهما

ان جند المسلمين على مقربة من مكة، فسالا عن أشراف قريش وماذا صنعوا فقيل لهما انهم خرجوا الى القتال ولم يبق بمكة سوى ابى سفيان وانه أيضا عند ماسمع بجيوش المسلمين خرج اليهم وربما اعتنق دينهم لانه خرج خائفا

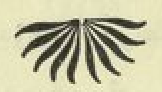
فتفرس أرمانيوس فى اهل مكة، فرأى علائم الفشل بادية على وجوهم وسمع بعضهم يمتدح الاسلام، وينقم على ابى سفيان، والبعض يلوم قريشا على عنادهم فعلم ان الامر صائر الى المسلمين لامحالة عندئذ صاح بقيس هلم بنا نسير حتى نكون على مدناة من جيوش المسلمين لنسرح الطرف فيه ونكتشفه فاجابه قيس ان فى ذهابنا لخطرا علينا. فقال أرمانيوس وأى شيء يصيبنا اذا نحن وقفنا بعيدا. ولم يزل بقيس حتى اقنعه وخرجا من مكة حتى وصلا الى مر الظهران فرايا الناس يهرعون، والنساء يولولن، فالتفت أرمانيوس فرأى الغبار يتصاعد على بعد. فاخذبيد قيس وصعدا اكمة يريان منها مايكون فرأيا الغبار وقد انكشف عن جند متكاثف يتقدمه الفرسان بالريات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين وكان ذلك فى شهر رمضان فعسكر الجند على مسافة من مكة، وبعد ان شاهدا ماشاهدا اقفلا راجعين. وفيما هما سائران رأى كوكبة من الفرسان يتقدمها ابو سفيان وهو يدعو الناس الى الاسلام بالنصح والتحذير. فلم يكن يسمع الا ازدراء وسمعاه ينادى من دخل دارى فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن. ثم يقول يامعشر قريش اسلموا تسلموا. فاقتربت منه امرأة وقالت يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الاحمق، وأخذت بلحيته فقال: ارسلى لحيتى. اقسم لئن لم تسلمى لتضربن عنقك. ادخلى بيتك. فسأل أرمانيوس من تكون هذه المرأة؟ فقيل له انها هند زوجة أبى سفيان. ورأيا اسرابا من قريش يتأهبون لقتال المسلمين، وفيهم الراجل والفارس، عندئذ قال قيس لارمانيوس هيا بنا نذهب الى منزل الامير اذ لابد ان تكون افكارهم قد شغلت

علينا فوافقه أرمانيوس وذهبا حتى وصلا الى باب المنزل فوجداه مغلقا فاضطرب قلب أرمانيوس وتقدم وطرق الباب ففتح له . دخل وقيس وراءه فوجدا الخدم مسلحين فسألاهم عن الأمير ، فقيل لهما انه فى دار الاضياف . فذهبا اليه وعندما دخلا عليه سر بهما وقبل أرمانيوس من جبينه ، وهنأه بسلامة العودة ، ثم جلسوا يتجاذبون اطراف الحديث عن احوال مكة فقص عليه أرمانيوس جميع ما رآه وقال انى اعتقد ان جيوش المسلمين لا تدخل مكة قبل صباح الغد . فاقر الامير نظره ، وأبدى له أسفه عن تعطيله عن الخروج وان وصية والده هى التى منعته وان جلوسه بالمنزل ليس عن جبن أو خوف . فاجابه أرمانيوس انه يعتقد ذلك وانه قد سمع عن شجاعة الامير وان وصية والده كانت خير وصية حوت الحكمة بحذافيرها . وفى أعقاب هذا الحديث قاما وتناولا الطعام ثم دخل الامير دائرة الحرم فوجد زوجته وابنته مشغولتى الفكر عليه وعلى أرمانيوس فطمأنهم وجلس يتحادث معهم وقضوا ليلتهم دون أن يغمض لهم جفن حذرا من مفاجأة الطوارق .

أما أرمانيوس وقيس فانهما ذهبا الى غرفتهما ولبثا يتحادثان الى أن بزغ الفجر فقام أرمانيوس وطلب من قيس أن يتبعه لينظرا دخول جيش المسلمين الى مكة فوافقه قيس وخرجا الى أكمة وصعداها فاشرفا على جيش المسلمين ، فلم يقفا الا قليلا حتى رأياه وقد اصطف ومشى يتقدمه الفرسان وأصحاب الرايات وفيهم قبائل اسلم . وغفار ، واشجع ، وسليم ، وغيرهم فتأملا عددهم فوجداه يربو على العشرة آلاف . وشاهدا فى الوسط كتيبة خضراء وموكبا هائلا فى وسطه راحلة عليها معتجر بشقة حمراء ، وعلى رأسه عمامة سوداء حرقانية ، واضعا رأسه على رحله تواضعا لله على ما أكرمه به من الفتح حتى ان اسفل لحيته لتمس واسطة الرحل وشاهدا على الرحل رجلا رديفا ، وحوله فرسان لا يرى منهم الا الحدق . فعجبا

لذلك واشتاقا لمعرفته فرأيا رجلا قادما من جهة الجيش فسألاه عن هذا الموكب فقال انه موكب رسول الله وان الراكب هو رسول الله . والمردوف وراءه خادمه أسامة بن زيد والذين حوله جمع من المهاجرين والأنصار .

فعجب ارمانيوس لهذا المشهد البهيج . وقال يخاطب قيسا : لا عجب اذا نصر من كانت هذه خلاله . ثم سال الرجل أين هم سائرون ؟ فقال انهم سائرون الى مكة من أعلاها فى هذه الساعة . وان فرقة منهم سائرة اليها بامارة خالد بن الوليد من أدناها وهذا هو اليوم الاول الذى أمرّ فيه رسول الله (صلعم) خالد بن الوليد. قال الرجل ذلك وسار فى طريقه . عندئذ قال قيس لارمانيوس هلم بنا نذهب الى الحرم . فهر ولا مسرعين وكانا يريان فى طريقهما جموع قريش يتالبون للدفاع ولكن الفشل كان يبدو على وجوههم وشاهدوا النساء ماشيات محلولات الشعور يستحثن الرجال بالاناشيد ، وفى أيديهن الخمر يضربن بها وجوه الخيل تحريضا وتوبيخا . فلم يزدادوا من تلك المناظر الا رهبة وخوفا . وتحقق ارمانيوس اذ ذاك ان المسلمين فاتحوها لامحالة . ومازالا سائرين حتى وصلا المسجد فدخلا وجلسا فى بعض جوانبه . فرأيا الناس هناك زرافات ووحدانا وقد استولى عليهم الخوف ، وبعد ساعات معدودة ضج الناس فى المسجد وهم يقولون قد أقبل رسول الله (صلعم) فتحقق ارمانيوس أن الفتح قد تم للسلمين



دخول رسول الله ﷺ المسجد

وقف ارمانيوس وقيس فى موقف يريان منه النبى (صلعم) وهو داخل المسجد فما لبثا أن سمعا الناس يكبرون ورأيا النبى داخلا على قدميه ووراءه رجل من أصحابه آخذ بزمام ناقته (صلعم) فطاف حول الكعبة سبعاً وفى كل مرة ياخذ الحجر الاسود بمجحفه والناس يصيحون بالتكبير حتى علا صياحهم وضجيجهم فاشار اليهم الى أن أسكتوا.

وكان بالمسجد ثلثمائة وستون صنما . لكل حى من احياء العرب صنم . قدشدوا اقدامها بالرصاص . فجاء النبى وفى يده قضيب فجعل يهوى على كل صنم منها فيهوى على وجهه أوقفاه . وهو يقول : قدجاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقا .

فكانا ينظران الى ذلك ويعجبان . ثم رأياه جاء الى صنم كبير الى جانب الكعبة وكانا قد عرفا انه هبل الاكبر فكسره . وكان فى الكعبة صور شتى فأمر بها فمسحت كلها .

ولما تكسرت الاصنام وامحت الصور . امر بفتح الكعبة ففتحت . فدخلها والناس ينظرون فصلى فيها ركعتين . ثم وقف على باب الكعبة والناس وقوف صامتون كأن على رؤوسهم الطير فقال

(لا آله الاالله وحده، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ،) الا كل دم أو ماثرة أو مال يدعى تحت قدمى هاتين . الا سدانة الكعبة وسقاية الحج ، ثم قال يامعشر قريش :

ماترون انى فاعل بكم ؟ قالوا . خيراخ كريم . وابن اخ كريم . قال اذهبوا فانتم

الطلقاء . فعفا عنهم . وكان الله قد امكنه منهم وكانوا فيئا فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء

ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثير من الاحكام منها (لا يقتل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين . ولا تنكح المرأة على عمتها . ولا على خالتها . والبينة على المدعى . واليمين على من انكر . ولا تسافر المرأة ثلاثة أيام الا مع ذى حرم . ولا صلاة بعد العصر . وبعد الصبح . ولا صيام يوم الاضحى ويوم الفطر . ثم قال يامعشر قريش . (ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . والناس من آدم من تراب .)

وقال اقوالا أخرى أدهشت أرمانيوس وقيسا لما حوته من الحكمة والموعظة فنظر أرمانيوس الى قيس قائلا : والله انى لأعجب لاناس قاوموا هذا النبي وهذه تعاليمه واقواله . ولا ريب عندى ان سلطانه سيتسع حتى يمحو دولتى الروم والفرس .



البيعـــة

ثم رأيا رسول الله ﷺ وقد جلس للبيعة على الصفا وعمر بن الخطاب تحته . واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا وكانت هذه بيعة الرجال . وأما بيعة النساء فانه لما فرغ من الرجال بايع النساء فاتاه منهن نساء من نساء قريش منهن أم هانىء بنت أبى طالب . وأم حبيبة بنت العاص بن أمية . وأروى بنت أبى العيص ، واختها عاتكة ، وفاطمة بنت عفان بن أبى العاص اخت عثمان ، وهند بنت عقبة . وفاختة بنت الوليد بن المغيرة اخت خالد ، وكانت هند متنكرة مخافة رسول الله ﷺ

فقال لهن : تبايعننى على ان لا تشركن بالله شيئا . قالت هند : انك والله لتأخذ علينا مالا تأخذه على الرجال فسنؤتيكه . قال ولاتسرقن . قالت . والله ان كنت لاصبت من مال أبو سفيان الهنة والهنة. فقال أبو سفيان وكان حاضرا اما مامضى فانت منه فى حل. فقال رسول الله (صلعم) أهند؟ قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك . قال. ولا تزنين . فقالت .وهل تزنى الحرة .قال. ولا تقتلن أولادكن قالت . ربيناهم صغارا ، وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فانت وهم أعلم . فضحك عمر . قال. ولا تأتين ببهتان تفترينه بين ايديكن وارجلكن . قالت . والله ان اتيان البهتان لقبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق . قال. ولاتعصينني فى معروف . قالت. ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك . قال رسول الله (صلعم) لعمر: بايعهن واستغفر لهن رسول الله .

وكان رسول الله (صلعم) لايمس النساء ولا يصافح امرأة ولا تمسه امرأة الامن احلها الله له . ثم رأي أرمانيوس قريشا يعتنقون الاسلام ويصلون ويهنئ بعضهم بعضا وقدهدأت الاحوال وآب الناس الى السكينة وانطلقوا الى منازلهم

واشغالهم . فقام أرمانيوس وقيس وذهبا الى منزل الامير فوجداه لم يزل مغلقا فطرقاه ففتح لهم. دخلا فوجدا الامير ومن بالمنزل مشغولى الافكار لغيابهما . وعندما رآهما الامير هنأهما بسلامة العودة وسألهما أين كانا فقصا عليه ما شاهداه قائلين له: ان الاحوال بمكة رجعت الى نصابها. فحمد الله على انتهاء الحرب بسلام وأخذ يتسامر معهما وفيما هم كذلك دخل أحد العبيد وأعلم الامير بقدوم بعض أصحابه فامر بادخالهم فدخلوا وسلموا على الامير فسألهم اعن حالهم فقصوا عليه ماوقع وأنبأوه بانهم اعتنقوا الاسلام لأنه دين الحق والحكمة ولم يزالوا بالامير يحدثونه حتى آمن هو أيضا ومن بعده أرمانيوس وقيس وجميع الخدم. وامر الامير بفتح الابواب وانجلى الخوف ورجعت المياه الى مجاريها.

ثم قام اصحاب الامير فذهبوا الى دورهم، ودخل الامير دائرة الحرم وقابل زوجته وابنته، ودعاهن الى الاسلام فاجبنه بكل أرتياح واغتباط.

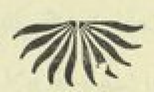
أما أرمانيوس وقيس فانهما ذهبا الى غرفتهما وهما منشرحان فرحان باعتناق الأسلام ولعظيم فرحهما لم يغمض لهما جفن بل لبثا يتحدثان ويذكران عظمة الرسول العربى وماشاهداه منه من ضروب التسامح الى أن أنفاق الاصباح واتاهما الخدم بالقهوة والافطار. فتناولهما ونهضا الى غرفة الاضياف ينتظران خروج الامير من دائرة الحرم. وفيما هما ينتظران دخل عليهما بعض أصحاب الامير والقوا عليهما السلام فردا عليهم وأخذوا يهنىء بعضهم بعضا بالدخول فى الدين الحق، وكان كل حديثهم عن محمد (صلعم) الى أن خرج الامير فقاموا مسلمين عليه ومباركين له بالأسلام فاجابهم بعبارات لطيفة تنم عن سروره. ثم سالهم عن الرسول هل هو بمكة بعد؟

فاجابوا: أنه سافر الى المدينة فقام الامير وخرج مع الحاضرين الى مكة وأخذوا يطوفون باسواقها فوجدوا الحالة تحسنت عن ذى قبل كثيرا ثم ذهب

الى الحرم فرأى محل الأصنام خاليا والناس مشغولون بالصلاة . هذا راكع . وذاك ساجد . وآخر يتلوا القرآن . فانشرح صدره ولبث فى الحرم زهاء ساعة ثم قفل راجعا الى منزله ومعه أرمانيوس وقيس .

وعند وصوله اصدر الأمر للخدم باعداد معالم الزينات وشارات الأعراس والافراح لزفاف ابنته على أرمانيوس . فاقيمت الزينات ونصبت الشارات والرايات ونحرت النياق والشياة . ولبث الحال على ذلك ثلاثة ايام . وفى اليوم الثالث افرد الامير للعروسين جناحا خاصا من المنزل ودخل أرمانيوس على سلمى فالتقى الحبيبان . وزال ماكان بهما من لوعة العشق والغرام . وخمدت نار الجوى . وحمدا الله على ماسهل لهما من الالتقاء تحت راية الاسلام .

وبعد ان انقضت سبعة ايام الزفاف ازلت معالم الزينات بعد ان تلقى أرمانيوس تهانى المهنئين . و رجع الحال على ماكان عليه ، وصار الامير يخرج فى كل صباح مع أرمانيوس من دائرة الحرم الى دار الاضياف ، ويلتقيان بقيس ثم يخرجان معا الى الكعبة فيصلون و يتلقون علوم الدين و يرتقبون انباء الرسول (صلعم) وانتشار الاسلام من الوافدين من المدينة .



غزوة على بن ابى طالب لليمن

فى السنه العاشرة من الهجرة ابلغهم قادم من المدينة ان الرسول (صلعم) ارسل على بن ابى طالب فى ثلثمائة مقاتل الى قبيلة بنى مذحج من أهل اليمن وعقد لواءه بيمينه وعممه بيده قائلا له :

سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم الى كلمة التوحيد . فان اجابوا فمرهم بالصلاة . ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس . ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك . وقال ايضا . اذا جلس اليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر .

فسار على حتى أنتهى اليهم . ولقى جموعهم . فدعاهم الى الإسلام . فابوا ثم أجابوا بعد قتالهم وهزيمتهم . و بايعه رؤساؤهم . وطلبوا منه ان ياخذ زكاة أموالهم وان يكونوا على من وراءهم من قومهم .

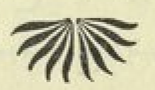
وقال لهم هذا القادم الذى بلغهم ذلك الفتح ان الرسول سيقدم مكة فى هذه السنة وان على ابن ابى طالب مع اصحابه سيوافونه بها . وقد أرسل الرسول (صلعم) الى أهل اليمن من يعلمهم شرائع دينهم .



حجة الوداع وخطبتها

ففرح الامير وصهره بقدوم الرسول (صلعم) الى مكة . ولبثا ينتظر انه بفارغ الصبر الى ان حضر الرسول فانهالت عليه القبائل وتقاطرت من جميع الانحاء للدخول فى الدين الحق . وجاءت الوفود تترى للاعتراف بتعضيدهم للاسلام فنزل قوله تعالى (اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا) الخ الآية .

وفى اليوم التاسع من ذى الحجة ذهب الامير مع صهره ومعهما قيس الى منى حيث كان الرسول (صلعم) فرأوا حوله جمعا عظيما لا يقلون عن مائة وأربعين الفا من الرجال والنساء والاطفال . وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم . واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) : وقد اغتنم الرسول هذه الفرصة فقام بين القوم وحوله ممثلو جميع القبائل خطيبا وقال :



الخطبة

ان الحمد لله نحمده و نستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له : ومن يضلل فلا هادى له . واشهد ان لا إله الا الله وحده لاشريك له . وان محمدا عبده ورسوله .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، واحثكم على طاعته ، واستفتح بالذي هو خير .

اما بعد : أيها الناس : اسمعوا مني ابين لكم . فاني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس : ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الا هل بلغت؟ اللهم فاشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها ، وان ربا الجاهلية موضوع ، وان اول ربا ابدأ به ربا عمى العباس . وان دماء الجاهلية موضوعة ، وان اول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعه . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . وان العمد قود ، وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر . ففيه مائة بعير فمن زاد فهو من الجاهلية .

ايها الناس : إن الشيطان قد يئس ان يعبد فى ارضكم هذه ، ولكنه رضى ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحتقرون من اعمالكم . ايها الناس . (انما النسىء زيادة فى الكفر) الخ الآية : وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض . ومن الاشهر أربعة حرم . ثلاثة متواليات . واحد فرد . الا قد بلغت؟ اللهم فاشهد .

ايها الناس : ان لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق . الا يوطئن فراشكم غيركم ، والا يدخلن احدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ، والا يأتين بفاحشة فان

فعلن فان الله قد اذن لكم ان تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح . فان انتهين واطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا . أخذتموهن بامانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا .

أيها الناس : إنما المؤمنون أخوة : فلا يحل لامرء مال أخيه الا عن طيب نفسه . الاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فلا ترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم اعناق بعض . فانى قد تركت فيكم ماان أخذتم به لن تضلوا أبدا . كتاب الله ، وأهل بيتى . ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد ايها الناس : إن ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى . الاقد بلغت ؟ قالوا : نعم قال فيبلغ الشاهد منكم الغائب .

ايها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث . ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث . والولد للفراش ، وللعاهر الحجر : من أدعى إلى غير أبيه أوتولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه صرفا ولاعدلا . والسلام عليكم ورحمة وبركاته .

بعد الفراغ من الخطبة غادر الامير زهير وأرمانيوس وقيس منى إلى منزلهم وهناك التقوا ببعض أصحابهم فكان حديثهم الخطبة وما احتوت حتى حان وقت الانصراف فانصرفوا ودخل الامير وأرمانيوس كل الى حرمه .

وفى صباح اليوم التالى بكر ارمانيوس بالخروج الى منزل الاضياف فوجد صديقه قيسا جالسا يفكر . فسأله عن حاله . فاجابه بانه يريد السفر الى الوطن لرؤية الاهل والاصحاب . فعز ذلك على أرمانيوس وأجتهد فى أقناعه بالعدول عن السفر فلم يتمكن لنا أسف الاسف الشديد على مفارقة صاحبه وصديقه وعونه فى الكروب والخطوب . ثم قال . اذا كان ولا بد من السفر

فارجوك أن تصحب معك الجندي حيث أزمعت على تزويده بخطاب للامبراطور أسرد له فيه بقية الحديث فاجابه قيس بالسمع والطاعة ، وقام من ساعته يتاهب للرحيل وكذلك آمرا الجندى بالاستعداد

اما أرمانيوس فانه قام من وقته وساعته ، ودخل دائرة الحرم وجلس يحرر للقيصر رسالة ذكر له فيها جميع ماتم واتفق وماشاهده ورآه بمقلته وانسان عينه وانه قد من عليه الله بالاسلام . فاعتنق الديانه المحمدية . واقترن باميرة صميمة عربية واعتزم من اجل ذلك الاقامة بمكة وليس له رغبة فى مغادرة الاقطار الحجازية ثم اختتم رسالته بقوله .

ياصاحب الجلالة اذاقسنا الرسول العربى (صلعم) بالملوك العظماء . والساسة الحذاق الكبراء . والقواد المحنكين . والخطباء المصاقيع البلغاء والمنشئين المجيدين والكتاب البارعين المتفننين . والشعراء المفلقين المحكمين . والوعاظ المؤثرين والانبياء والمصلحين . ومؤسسى الممالك والدول العظام وجدناه ارجح من هؤلاء جميعا . وجدناه اكبر ملك . واعقل سياسى . وابلغ منشىء وواعظ . واحكم شارع واشجع قائد . وأعظم غاز وفاتح . واحكم متدين ، واخلص ناصح واكبر مرشد للناس فى جميع الشئون دينية أو دنيوية . وانجع مصلح للافكار والاخلاق والعقائد والعبادات والمعاملات . وانفع مؤسس . وأدوم الملوك ملكا . وهو فى كل ذلك لم يتعلم من مخلوق شيئا يصلح أقل جزء مما كان حوله من الاوهام والخرافات . ولم يتدرب ولا تمرن قبل النبوة على أي عمل مما أتى به بعد النبوة بل نبغ فى كل ذلك دفعة واحدة حينما تمت نبوته . وكل ما يلزمه من اعبائها يجد نفسه اكبر نابغ فيه . فما هذا العلم فى تلك الامية . وما هذا الاصلاح ممن نشأ فى بلاد الوثنية بعيدا عن أنظمة المدينة .

تباركت يالله . انهو الا وحيك اليه . ودعوتك وتأييدك له . وبذلك ختم

الرسالة وطوي الخطاب وقام فخرج الى دار الاضياف . فوجد قيسا والجندى على اتم استعداد للسفر . فسلم الخطاب للجندى . ونفحه بعض الدنانير . وجلس مع قيس يبث كلاهما اصاحبه لوعة الفراق . وفى اثناء ذلك خرج الامير، فقاما مسلمين عليه وأعلمه أرمانيوس بسفر قيس . فأسف الامير لمفارقته ولكنه عذره لاشتياقه الى رؤية أهله وعشيرته ، ثم دعا له بالتوفيق وخرج يريد الحرم .

أما أرمانيوس فانه ذهب مع قيس والجندى ولم يزل معهما الى أن وجدوا قافلة ذاهبة الى الشام فسارا معها . وقفل أرمانيوس راجعا الى المنزل . وفى نفسه انقباض لفراق قيس فلم يزل على ذلك الى أن دخل على سلمى ، وجلس يتحدث معها حتى ازال ما به من انقباض ، ولبث متوطنا بمكة حتى آخر عهده بالحياة .

أما قيس والجندى فانهما ذهبا مع القافلة حتى وصلا بصرى فسلم قيس الجندى الى حاكمها وكلمه فى ارساله الى الامبراطور . وسار هو الى البلقاء لمقابلة أهله وعشيرته فوصلها ووجد أهله بخير فجلس بينهم يبث الدعاية للاسلام .

أما الجندى فانه سار من بصرى للقاء مولاه الامبراطور مع رسول من قبل الحاكم ولم يزالا سائرين حتى قدما على القيصر فاستأذن لهما الحاجب. وكان القيصر فى ذلك الوقت يفكر بارمانيوس وما جرى له فاذن لهما فدخلا وقبلا الارض وناوله الجندى الخطاب . ففضه وعند ما علم انه من أرمانيوس أمرهما بالانتظار ثم تلا الخطاب وصار يكرره حتى اغرورقت عيناه بالدموع حزنا وفرحا. أما حزنا فعلى فراقه لقائده وأكبر مخلص رجال بلاطه . وأما فرحا فلاعتناق أرمانيوس الشريعة المحدية . ثم أمر الحاجب بادخالهما فدخلا فأمر للجندى بمبلغ من المال والانصراف الى أهله . وأمر للرسول بكسوة والرجوع الى بصرى . انتهى

أما الرسول (صلعم) فانه بعد ان عاد من الحج الى المدينة اخذه مرض لبث به زهاء ثلاثة أيام . ولما اشتد به المرض استأذن نسائه فى ان يقضى مرضه بيت احداهن فاذن ببيت عائشة . ولما تعذر عليه الخروج الى الصلاة قال .

مروا أبا بكر أن يصلى بالناس ثم خرج متوكئا على على والفضل وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوب يخط برجليه حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر فثار اليه الناس فحمد الله واثنى عليه ثم قال .

أيها الناس : بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم . افهل خلد نبي قبلى فيمن بعث فاخلد فيكم ؟ الا وانى لاحق بربى . الاوانكم لاحقون بى . فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله تعالى يقول (والعصر إن الأنسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الخ وأن الامور تجرى بأذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فان الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد . ومن غالب الله غلبه . ومن خادعه خدعه . (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم) . وأوصيكم بالانصار خيرا فأنهم الذين تبؤوا الدار والايمان من قبلكم . أن تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة ؟ ألافمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم . ألاوانى فرط لكم وانتم لاحقون بى . ألا وأن موعدكم الحوض . ألا فمن أحب أن يرده عليه غدا فليكفف لسانه ويده الافيما ينبغى .

أيها الناس : أن الذنوب تغير النعم . وتبدلها بالنقم . فاذا بر الناس برهم أئمتهم . واذا فجروا عقوهم . أنتهى

ومن بعد ذلك لم يات يوم الاحد حتى أشتد على الرسول الوجع . ولما كان

يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول من السنة العاشرة من الهجرة فارق الرسول دنياه ولحق بمولاه وأختار الرفيق الاعلى على زهرة الحياة الدنيا بعد أن أدى الرسالة . وقام بحق الامانة وهدى الناس الصراط المستقيم . ودعاهم الى عبادة الله العليم الحكيم . واحتمل من أجل ذلك المشاق الجمة . والاهوال الجسيمة المدلهمة أهوالا ثبت أمامها غير هياب ولا وجل حتى صرع الحق الباطل . وأنتشرت أشعة الدين الحنيف . فانار الابصار والبصائر فنطقت الالسن بالشكر له . والثناء عليه وأخذ الحزن من النفوس كل ماخذ أسفا على فراقه .

بقى فى بيته حتى أنتهى المسلمون من أقامة خليفة لهم . ثم غسل و كفن فى ثلاث أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة . وصلى عليه المسلمون بلاأمام الرجال ثم النساء ثم الصبيان وحفر له لحد فى بيت عائشة حيث توفى ودفن ليلة الاربعاء

(انتهي ويليه كتاب)

(عبدالله بن أبى قحافة المعروف بابى بكر الصديق)

رجب الفرد سنة ١٣٥٠ (هـ)

نوفمبر سنة ١٩٣١ (م)



كتاب الرسول العربى

DATE DUE

